اللغة والمجتمع

رأى ومنهج

بقلم الدكتور محمود السعران

— ١ —

وظيفـــة اللغـــة

(١) يحاول علم اللغة العام[1] أن يجد طرقا لدراسة اللغة باعتبارها ظاهرة انسانية عامة، طرقا تصلح لدراسة جميع الاشكال الكلامية التى تصطنعها الجماعات البشرية على اختلافها ، وهذه الطرق لن تكون هى نفسها دراسة للغة مفردة من لغات البشر ، سالفها أو حاضرها أو قادمها ، ان هذه الطرق شىء أشبه بالألف باء الصوتية الدولية[2]، فهذه الألف باء لا يقصر استعمالها على لغة بعينها ، ولكنها قد قصد من وضعها أن تكون وسيلة صالحة لتمثيل أى نطق فى أى لغة ، فهذا الرمز أو ذاك من رموزهـا لا يمثل هذا الصوت أو ذاك فى هذه اللغة أو تلك ، ولكنه يمثل « نوعا » صوتيا عاما .

والمبدأ الذى يجب أن يراعى فى رسم تلك الطرائق المؤدية بدراسة اللغـة تلك الدراسة هو المحافظة على ما يدعوه دى جروت[3] اللغوى الهولندى « استقلال علم اللغة»[4] ، فلعلم اللغة موضوعه الفرد ، وان « موضوع علم اللغة الوحيد والصحيح هو اللغة معتبرة فى ذاتها ومن أجل ذاتها » كما يقول فرديناند دى سوسير فى «محاضرات فى علم اللغة العام »[5]، ولذلك وجب أن تكون مناهج علم اللغة ووسائله وأسسه «الفلسفية»

---

(١) General Linguistics . . . . . .

(٢) International Phonetic Alphabet . . . . . .

(٣) De Groot . . . . . .

(٤) The autonomy of Linguistics . . . . . .

(٥) Ferdinand de Saussure : Cours De Linguistique Générale, Quatriéme édition, Payot, Paris 1949, p. 317
"la linguistique a pour unique et véritable objet la langue envisagée en elle-même et pour elle - même. "

مستمدة من طبيعة موضوعه ، ومتلائمة وإياها. نعم انا لنستعين بعلوم أخرى فى تكويننا لنظرية عامة فى اللغة ؛ ولكن فرق بين هذا وبين أن ننظر الى اللغة من خلال مناهج علوم أخرى ، أو أن ننظر اليها على أنها فرع من علم آخر .

(٢) لقد سبق أن قامت الدراسات اللغوية على أساس أنها فرع من الفلسفة، أو فرع من علم النفس، أو فرع من الانثروبولوجيا الاجتماعية[1]، أو ... الخ. ، وخلاصة ما أدت اليه هذه الدراسات هو اعتبار اللغة وسيلة للتعبير عن الافكار والعواطف والرغبات أو وسيلة لتوصيل الأفكار و . . . الخ. وان « هنرى سويت » يقدم نوعا من النظرية الكلاسيكية فى اللغة اذ يقول : « ان اللغة هى التعبير عن الافكار بوساطة الأصوات الكلامية المؤتلفة فى كلمات. »[2]

وادوارد ساپير يذهب نفس المذهب اذ يقول : « اللغة وسيلة انسانية خالصة ، وغير غريزية اطلاقا لتوصيل الأفكار ، والانفعالات ، والرغبات عن طريق نظام من الرموز التى تصدر بطريقة ارادية . »[3]

ولا يزال بعض المحدثين من علماء اللغة ينظرون الى اللغة هذه النظرة، على الرغم من دراستهم لـ « الكلام الحى » ، ومن استعانتهم بعلم الاجتماع فى دراسة اللغة .

ولكن « الأفكار » و « الانفعالات » و « العواطف » والرغبات الخ مصطلحات منقولة من دراسات أخرى غير لغوية فى أصلها . ولو جاز أن « الكلام » فى بعض استعمالاته تعبير عن «الفكر» فانه ليس كذلك فى جميع استعمالاته أو فى معظمها ؛ فليس ثمة توصيل للأفكار أو تعبير عن أفكار فى لغة التحيات ، ولغة التأدب ، ولغة التدريب الرياضى والعسكرى مثلا ، كما سنرى .

ان أصحاب هذه النظرية فى اللغة ، على اختلافهم ، يرون أن :

---

(١) Social Anthropology . . . . . .

(٢) Henry Sweet : New English Grammar : "Language is the expression of ideas by means of speech-sounds combined into words."

(٣) Edward Sapir : Language, An Introduction to the Study of Speech ; New York, Harcourt, Brace and Company, 1921, P. 7 :

"Language is a purely human and non-instinctive method of communicating ideas, emotions and desires by means of a system of voluntarily produced symbols."

ويقول ساپير فى ص ٢١ من نفس الكتاب :

"Language, as a structure, is on its inner face the mold of thought."

ا — الوظيفة الأساسية للغة هى أنها وسيلة من «الاتصال» أو «التوصيل»[1] ، أو «النقل»[2] ، أو «التعبير»[3] عن طريق «الأصوات الكلامية »[4] .

ب — وأن ما « توصله » اللغة ، أو « تنقله » أو « تعبر عنه » هو الأفكار[5] ، والمعانى ، والانفعالات ، والرغبات ، و . . . الخ ، أو « الفكر »[6] بوجه عام .

ذهب هذا المذهب كثير من علماء اللغة ، لا سيما أولئك الذين تقوم دراساتهم للغة على أساس « منطقى »[7] ، أو « فلسفى » أو « نفسى » ، أو «رياضى»، أو « آلى » . يرى هؤلاء أن اللغة لا تعدو أن تكون مرآة ينعكس عليها الفكر ، أو أداة عاكسة للفكر ، أو « مستودعا » للفكر المنعكس ، أو وسيلة لتجسيم الفكر أو التعبير عنه ، الى أشباه هذا .

---

(١) Communication . . . . . .

(٢) Transmission . . . . . .

(٣) Expression . . . . . .

(٤) Speech - sounds . . . . . .

(٥) Ideas . . . . . .

(٦) Thought . . . . . .

(٧) ليس هذا الكلام قاصرا على اللغويين القدماء من يونان ورومان ، وعلى لغويى العصور الوسطى ، أولئك الذين خضعوا فى تفكيرهم اللغوى لمنطق ارسطو ولبعض التصورات الفلسفية ، ولكنه يصدق كذلك على كثير من المناطقة المحدثين الذين تعرضوا للغة ؛ ومن هؤلاء جفونز Jevons الانجليزى فقد قال فى كتابه :

Elementary Lessons of Logic, p. 237 ان اللغة تخدم ثلاثة اغراض :

(١) أنها وسيلة للتوصيل (٢) أنها مساعد آلى للتفكير (٣) أنها وسيلة للتسجيل والرجوع اليه . ويقول جفونز : « كانت اللغة فى نشأتها الاولى تستعمل فى الغرض الاول على وجه الخصوص ان لم يكن استعمالها فيه وحده . » وقد ناقش الأستاذ يسپرسن Otto Jespersen فى كتابه

Mankind, Nation and Individual from a Linguistic Point of View, P.P. 6-7

رأى جفونز فلاحظ أن الاستعمال الثالث للغة فى رأى جفونز لا يعدو أن يكون فرعا ثانويا من الاستعمال الاول وذلك « لانه عندما يدون الانسان مذكرة عن شىء ما ليرجع اليها من بعد ، ومن ثم يحضر فى ذهنه افكاره السابقة ، فهذا أمر لا يختلف فى جوهره عن الغاية الاولى للغة . فالانسان عند ما يقرأ مذكراته الماضية يكون هو نفسه ويكون شخصا آخر فى نفس الوقت » (ص ٦) اى أنه عندما يقرأ الانسان مذكراته الماضية يكون ثمة « توصيل » .

= ويقرر يسپرسن (ص ٧) أنه لا يستطيع ان يتبع چڤونز فى قوله ان اللغة فى نشأتها الاولى كانت تستعمل فى الغرض الاول — وهو كونها وسيلة للتوصيل — على وجه الخصوص ان لم يكن استعمالها فيه وحده . وكان يسپرسن ، قبل مناقشته رأى چڤونز هذا ، قد عرض رأيا شبيها به لهرمان پول Hermann Paul ورفضه. قال يسپرسن (ص ٥) : ,, ولن نقارب ابدا فهما تاما لطبيعة اللغة ما حصرنا انتباهنا فى وظيفتها العقلية بوصفها وسيلة لتوصيل الفكر . ولكن هذه النظرية الجزئية قد رآها (جماعة من) أبرز الباحثين . فهرمان پول فى خطابه البارع عن Völker-psychologie (الذى ألقاه فى ميونيخ سنة ١٩٠١) يقول عن غرض اللغة : « ان وظيفتها الاصلية ان تكون فى جميع الأحوال وسيلة لتوصيل Imparting شىء من الاشياء » . لا ، ما هذا بوظيفتها الاصلية، وما هو بوظيفتها الحالية . اما فيما يتعلق بنشأة اللغة فقد حاولت فى كتابى Progress in Language ثم أحدث من هذا فى القسم الاخير من كتابى Language ، حاولت ان أبين اننا نبدأ ان نحدس ليس الا ماذا كانت نشأة اللغة عند ما نرى ، بعد استقصاء تاريخها الى الوراء الى اقصى ما نستطيع ، ان اللغة المبكرة كانت اى شىء الا عقلية intellectual ، انها كانت حقا منزلا وسطا بين الغناء والكلام، انها بمجموعها من الاصوات الطويلة والتى تكاد تكون عارية عن المعنى كانت تعمل كمتنفس للاحساسات العنيفة أكثر من عملها على ان تكون تعبيرا مفهوما عنها ؛ وانها لم تكن فى اى حال من الاحوال تعتبر فى أساسها وسيلة لاخبار الآخرين هذا الشىء أو ذاك ، ولو أنها ، بطريق غير مباشر ، قد صارت فى الواقع آخر الامر الى ان تكون وسيلة للتوصيل . ،،

أما الغرض الثانى من اغراض اللغة الثلاثة فى رأى چڤونز — وهو أنها مساعد آلى للتفكير — فقد قال عنه يسپرسن (ص ٧) : ,, من الثابت ان امتلاك لغة من اللغات يساعد حقا التفكير الانسانى مساعدة جوهرية . ولكن علينا من ناحية اخرى الا ننسى ان جماعة من اعمق المفكرين طالما شكوا من أن اللغة التقليدية كانت فى حالات عائقا لهم عن التفكير فى شىء الى أعمق اعماقه . فهى بمفرداتها المحدودة . وبصيغها الثابتة قد اكرهت الفكر على ان يسير فى سبيل مطروقة ، حتى انهم اضطروا الى متابعة السير فى خطوط قديمة ، وانتهوا الى ان يكون تفكيرهم شديد الشبه بتفكير أقوام آخرين من قبلهم . ،،

وقد خلص يسپرسن من مناقشته رأى چڤونز بقوله انه لا يستطيع أن يتبعه فى اعتباره هذه الغايات العقلية الثلاث هى الغايات الوحيدة التى تستعمل من أجلها اللغة فاستعمال اللغة فى هذه الغايات لا يتحقق الا فى حالة المفكرين من الرجال والنساء ، ولا يتحقق عند هؤلاء الا فى أسمى لحظاتهم الاكاديمية (ص ٧) .

(الصديقى وزميلى الدكتور عبدالرحمن محمد ايوب، المدرس بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، ترجمة لكتاب يسپرسن هذا ظهرت سنة ١٩٥٤ بعنوان «اللغة بين الفرد والمجتمع» (ملتزم الطبع والنشر مكتبة الانجلو المصرية — مطبعة لجنة البيان العربى، القاهرة) . ولكننا لم نشأ أن نأخذ عن الترجمة بل أخذنا عن الأصل مباشرة ، فهذه الترجمة « بتصرف » ، وهذا التصرف يندرج تحته اختصار كلام المؤلف أحيانا ، واطالته أحيانا ، وكتابة بعض الفصول من جديد فى ضوء ما كتبه المؤلف أحيانا أخرى =

(٣) ولكن هل يجوز أن يعد هذا تعريفا صادقا للغة ؟ ان دراسة الأنواع المختلفة للوظائف الكلامية [1] فى لغة من اللغات « الحية » لا تؤيد أمثال التعريفات السابقة للغة ، ولا توحى بها .

ولقد كان مالينوفسكى [2] العالم الانثروپولوجى فضل كبير فى تغيير النظر الى اللغة، فقد أدرك عندما كان يدرس بعض المجتمعات التى جرى الاصطلاح على تسميتها بالمجتمعات « البدائية » أو « الفطرية » أو « الوحشية » ، أن دراسته لن تصح دون معرفة الوظيفة التى تقوم بها اللغة فى المجتمع . ومن هنا كانت نظريته الهامة فى اللغة، والتى كانت بين عوامل تطور النظر الى علم اللغة. وصل مالينوفسكى بعد دراسته لأمثال هذه المجتمعات الى أن وظيفة اللغة ليست أنها مجرد وسيلة للتفاهم أو للتوصيل ؛ بل وظيفة اللغة هى أنها حلقة فى سلسلة النشاط الانسانى المنتظم ، هى أنها جزء من السلوك الانسانى ، أنها ضرب من العمل وليست أداة عاكسة للفكر [3] . واستعمال اللغة على هذه الصورة ليس قاصرا على الجماعات =

لتكون مفهومة لدى القارىء العربى . ثم ان التعليقات التى أضافها الدكتور ايوب — وهى فى جملتها تعليقات قيمة نيرة تيسر فهم الاصل على القارىء العربى تيسيرا كبيرا فى معظم الاحوال — قد كتبت فى الاغلب مع الاصل دون فصل أو تنبيه ، فقد من العسير أن تعرف أين المؤلف وأين المعلق . وقد كان يسيرا على المترجم ان يضع تعليقاته فى الهامش مع النص على أنها من صنعته حتى لا تختلط مع التعليقات الاصلية للمؤلف ، كما كان عليه أن يشير الى النصوص التى اختصرها ، والى تلك التى أطالها حتى يكون القارىء على بينة . نرجو أن يتدارك الدكتور ايوب هذه المسائل فى طبعته القادمة لهذه الترجمة .

وقد ظهر سنة ١٩٥٥ كتاب لصديقى وزميلى الدكتور تمام حسان ، المدرس بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، بعنوان ,, مناهج البحث فى اللغة،، (ملتزم الطبع والنشر مكتبة الأنجلو المصرية — مطبعة الرسالة ، القاهرة)، وقد عرض رأى يسپرسن فى وظيفة اللغة فى الفصل الذى كتبه عن « اللغة والكلام » (انظر بوجه خاص الصفحات من ٤٠ الى ٤٥ من كتاب الدكتور تمام) .

(١) Types of speech - function . . . . . .

(٢) Bronislaw Malinowski انظر الملحق الذى كتبه لكتاب «معنى المعنى» The Meaning Of Meaning من تأليف العالمين النفسيين الانجليزيين : C.K. Ogden و I.A. Richards

(٣) Malinowski, op. cit., p. 312 . . . . . .

"In its primitive uses, language functions as a link in concerted human activity, as a piece of behaviour. It is a mode of action and not an instrument of reflection."

« البدائية » بل انه ليلاحظ في أرقى الجماعات تمدنا .

واليك أنواعا من وظائف الكلام تبين بجلاء أن الوظيفة الأساسية للغة ليست كونها ضربا من توصيل الافكار و . . . و . . الخ . وأول ما نذكره من هذا

ا ــ **« المونولوج »[1] (الكلام الانفرادى)** بصوره المختلفه ؛ كالقراءة الأنفرادية بصوت عال ؛ وكتدوين الملاحظات التى لا يقصد بها الا الكاتب نفسه . والمونولوج يعرف أحيانا بـ « تحديث الانسان نفسه »[2] ، أو بـ « التفكير بصوت مرتفع »[3] . ان المرأة المصرية عند ما تخلو الى نفسها ــ سواء أكانت تقوم بعمل يدوى أم لا ــ وتنشد الأشعار الحزينة ؛ والنثر المسجوع ؛ باكية من فقدتهم من الاحباب ؛ لا ترمى الى « نقل » احساسات أو «أفكار» ؛ بل تستعمل اللغة بقصد التنفيس والتفريج عن آلامها وأحزانها[4] . وغريب كل الغرابة أن يرى « ساپير » أن هناك حتى فى هذه الوظيفة الكلامية ألا وهى المونولوج ، توصيلا للفكر ، يقول :ــ (المتكلم والسامع هنا محققان فى شخص واحد يمكن أن يوصف بأنه ينقل الأفكار الى نفسه .)[5]

ب ــ ومن أنواع الوظائف الكلامية التى لا نجد فيها نقلا للأفكار ، أو شيئا يمكن أن ينقل ، كثير من صور **استعمال اللغة فيما يسمى بالسلوك الجماعى**[6] . فاصطناع اللغة فى الاجتماعات الدينية كالصلاة ، والدعاء ، ومخاطبة الله أو « المعبود » أو أية كائنات أخرى مقدسة ، أبعد من أن يعد نقلا للفكر .

جـ ــ وكذلك فان ملاحظة **استعمال اللغة فى المخاطبات الاجتماعية التى لاتستهدف غاية** مثل لغة التحيات ولغة التأدب ، والكلام عن حالات ظاهرة كالجو ،

(١) Monologue . . . . . .
(٢) talking to one's self . . . . . .
(٣) thinking aloud . . . . . .
(٤) as releaser of forces . . . . . .
(٥) Language, P. 18 . . . . . .
(٦) Choric Behaviour . . . . . .

تؤيد وجهة النظر التى ترى أن تبادل الكلمات يمكن أن يكون غاية فى نفسه . وهذا الاستعمال للغة قائم فى الجماعات الوحشية والمتمدنة على السواء ، وهو ماثل فى جميع اللغات دون خلاف . هذا الاستعمال للغة هو فى أساسه صورة من صور العمل الاجتماعى ، ووسيلة من وسائله ، ذلك لأن كل كائن بشرى يجد فى نفسه الميل الى الاجتماع بسواه ، والاستمتاع بصحبة غيره ، والنفور من الجليس الصامت ، والكلام أقرب مستلزمات تحقيق هذا الميل .[1]

د ــ ومن الوظائف التى تؤديها اللغة مما لا شأن له اطلاقا بتوصيل الفكر أو التعبير عنه ، أنها كثيرا ما تتخذ بين الكبار والصغار على السواء ، وسيلة الى **اللعب بالأصوات** ، والى التلذذ والانتشاء والسرور . فنحن كثيرا ما نردد أصواتا وكلمات غير قاصدين الا المتعة بأصواتنا ، والانتشاء بلفتنا ، ودون أن يكون لدينا ما هو جدير بالسماع . وقد عبرت عن هذه الحقيقة تعبيرا بارعا « مدام دى ستايل »[2] ، ولو أن كلامها كان مقصورا على اللغة الفرنسية ، وهو لا شك صادق على كل لغة من لغات الارض دون أن يمنع هذا من احتمال تحققه فى الفرنسية بطريقة أحذق ، وبدرجة أكبر[3] .

(١) انظر قول مالينوفسكى ص ٣١٠ :ــ

"Speech is the necessary means of communion; it is the one indispensable instrument for creating the ties of the moment without which unified social action is impossible."

وترجمته : « الكلام هو الوسيلة الضرورية للتشارك ، انه الآلة الفريدة التى لا غنى عنها لخلق روابط اللحظة ، هذه الروابط التى يستحيل بدونها قيام العمل الاجتماعى الموحد . »

(٢) انظر كتاب يسپرسن السابق ص ٧ــ٨ . وقد نقل يسپرسن كلام مدام دى ستايل عن Mme de Staël : Gerber, Sprache als Kunst, I. 79 . تحدثت مدام دى ستايل عن اللغة الفرنسية قائلة : « انها ليست كما هى عند غيرنا مجرد وسيلة لتوصيل افكارها واحساساتها ؛ وشئونها ؛ ولكنها آلة يحب الانسان ان يلعب بها ، وهى تحرك النفوس كالموسيقى عند أقوام ، والخمور القوية عند آخرين . »

"elle n'est pas seulement comme ailleurs un moyen de communiquer ses idées, ses sentiments et ses affaires, mais un instrument dont on aime à jouer et qui ranime les esprits comme la musique chez quelques peuples et les liqueurs fortes chez quelques autres".

٥ ــ ومن ذلك أن اللغة كثيرا ما تستعمل **لاخفاء افكار الانسان** [1] كما يحدث أحيانا فى لغة السياسة وغيرها (انظر شيئا من هذا فيما يلى بعنوان « اللغة والحياة السياسية » وبعنوان « الكلام الحرام ») وكما يحدث أحيانا فى لغة اللصوص والخارجين على القانون بصفة عامة .

وهكذا نرى أن تلك النظرية الكلاسيكية فى اللغة التى تقصر وظيفتها على توصيل الفكر أو التعبير عنه ، نظرية لا تمكننا من أن نحلل جميع أشكال « السلوك الكلامى »[2] ، وأصح منها وأدق أن ننظر الى اللغة على أنها « وظيفة اجتماعية »[3] ، على أنها « طريقة من العمل »[4] ، فما من شك فى أن مما يعيننا على فهم طبيعة اللغة وجوهرها حق الفهم أن ننظر الى الدور الذى تقوم به فى حياة الفرد ، وفى حياة الجماعة التى يؤلف بين أفرادها الحديث بلغة مشتركة ، وفى حياة النوع الانسانى عامة .

(١) ينسب الى تاليران Talleyrand الفرنسى تلك العبارة المشهورة وهى أن اللغة كائنة لتخفى أفكار الانسان ، وقد حسّن هذه العبارة Sören Keirkegaard بقوله ان اللغة يستعملها كثير من الناس لتخفى فقرهم الى الافكار .

وواضح ان عبارة تاليران لا يجوز أن تكون تعريفا لوظيفة اللغة ، فما ذكره ليس الا استعمالا واحدا من استعمالاتها الكثيرة . أما عبارة كيركجارد فليس فيها ما فى عبارة تاليران من تعميم فهى تشير الى استعمال خاص للغة غير متضمنة أن هذا هو الاستعمال الوحيد لها .

(٢) Speech Behaviour . . . . . .
(٣) Social Function . . . . . .
(٤) Mode of Action . . . . . .

— ٢ —

دراسة الوظيفة الاجتماعية للغة

هذه الوظيفة الاجتماعية للغة كيف يتسنى درسها ؟

(١) ان الطرق التى اقترحت للقيام بهذه الدراسة تختلف باختلاف المدارس اللغوية ، وسنحاول فيما يلى أن نرسم خطوط طريقة يرتضيها كثير من علماء اللغة فى انجلترا خاصة . وهذه الطريقة صالحة للتطبيق على أية لغة من اللغات « الحية » لدراستها من الناحية « الوصفية »[2] . أما دراسة لغة من اللغات « الميتة » ، أو دراسة مرحلة أو أكثر من تاريخ لغة من اللغات فلذلك مناهجه الخاصة .

١ ــ هذه الطريقة تعد الكائن البشرى مركز دراسة اللغة ، ولا تعد ذلك المركز بعض العلاقات الرياضية[3] أو الآلية[4] ، أو المنطقية[5] ، أو مايشبه هذا مما تتسم به الدراسات اللغوية القائمة على أساس فلسفى أو منطقى ، أو نفسى .

هذه الطريقة تتخذ الكائن البشرى نقطة البدء فى دراستها للغة . ولكن كيف تستقى مادة دراستها ؟ هل تسجل أحاديث كل شخص فى الجماعة التى تتكلم بلغة مشتركة ؟ ان هذا على ما فيه من مشقة وضياع للوقت سيؤدى الى خلط كثير . هل تسجل كيفما اتفق كلاما يصدر عن هذا ، وكلاما يصدر عن ذاك ، وآخر تنطق به تلك ، وتتخذه مادة دراستها ؟ ان فى هذا ما فيه من اضطراب ولن يؤدى الى نتائج ذات بال . يتفق ذوو الدراية من علماء اللغة على أن العدد الأدنى للحصول على فكرة صحيحة عن اللغة هو اثنان من أفراد الجماعة الكلامية : متكلم ومخاطب .

(١) من أصحاب هذه الطريقة المتحمسين لها أستاذى ج . ر . فيرث وقد عرض رأيه فى محاضراته وكتاباته ؛ انظر على وجه الخصوص مقاله القيم « الشخصية واللغة فى المجتمع »

J.R. Firth : Personality and Language In Society. The Sociological Review (Journal of the Institute of Sociology, Ledbury, Herefordshire, England) Vol. XLII, Section Two, 1950, pp. 37 - 52.

(٢) Descriptive . . . . . .
(٣) Mathematical Relations . . . . . .
(٤) Mechanical . . . . . .
(٥) Logical . . . . . .

ويرى الاستاذ فيرث أن العدد الادنى فى هذا السبيل شخص واحد ، وان كان يسلم بان اعتبار الحد الادنى شخصين صالح للوفاء بمعظم الأغراض[1] .

ب ــ هذه الطريقة تؤرخ **للتطور اللغوى للشخص فى الجماعة** منذ ولادتــه ؛ لا بل انها تدخل فى حسابها أن الطفل يولد على طبيعة خاصة ؛ ومن أهم ما فى طبيعة الكائن البشرى مما يتصل بدراســة اللغة ؛ هو الجهــاز العصبى[2]، وبعض الصفات الوراثية ؛ وأعضاء النطق . ما نوع الجهاز العصبى الانسانى ؟ كيف تنشأ اللغة فى الجهاز العصبى ؟ أثمة عناصر وراثية تجعل الكائن البشرى ذا قدرة على اكتساب اللغة ؟ قد يجوز لنا أن نصف الانسان بأنه « حيوان لغوى »[3]، وانا لنلاحظ أن الطفل يميل الى أن يكون لغويا فهل للوراثة دخل فى هذا ؟ هل يولد الطفل وقــد وهب قدرة على تعلم لغة معينة : العربية أو الانجليزية أو الالمانية مثلا ؟ واذا كان الجواب بالاثبات فكيف نعلل أن أطفال المهاجرين الى جماعة لغوية مختلفة هؤلاء الأطفال الذين يولدون فى البيئة الجديدة ويعيشون فيها حياتهم ــ وقد انقطعت الأسباب بينهم وبين لغة آبائهم ــ يتعلمون لغة هذه الجماعة، ويتعلمونها بنفس السرعة التى يتعلمها بها أهلوها الأصليون ، ويتكلمونها كما يتكلمها أصحابها ؟ أم أن القدرة اللغوية الوراثية ، ان كانت ، فهى « عامة » ؟ ومن الملاحظ أن المتكلم بأى لغة لا يستعمل أعضاء نطقــه فحسب ، بل كثيرا ما يلجأ الى التعبير اليدوى[4] ، والى التعبير بملامح وجهه ، فهل لهذا دخل بماضى الانسان ، وبالتراث الانسانى ؟

هذه المسائل وغيرها، المتعلقة بالصلة بين طبيعة الكائن البشرى وصفاته الوراثية وبين سلوكه اللغوى ، مسائل أثارها بعض المحدثين من علمــاء اللغة ، وهم يدعون الى بحثها، ولكنها لم تبحث البحث الواجب، وينتظر

(١) المرجع السابق انظر ص ٤٥ ، ص ٤٧ ، ص ٤٩ ، ص ٥٠ ــ ٥١ .
(٢) Nervous System
(٣) Linguistic Animal
(٤) Hand Expression

أن تؤدى البحوث المقبلة فيها الى أن يزداد فهمنا لطبيعة اللغة ووظيفتها . ومن البين أن البحوث فى هذه الامور تستدعى الاهتداء بحقائق مستمدة من علم الأعصاب[1]، وعلم الوراثة[2]، وعلم الحياة العام[3] اكثر من الاهتداء بنتائج علم النفس .

هذه الطريقة تهتم بـ « **الشخص** »[4] و « **الشخصية** » اهتماما كبيرا . وان الدراسات الفسيولوجية ، والتشريحية ، والعصبية ، والطبية لتبين أهمية الجهاز العصبى كله «والغدد المفرزة للهرمونات»[5] فى تكامل الشخصية، وان مميزات الشخصية لتجد التعبير عن نفسها من خلال النظام اللغوى . ثم ان دراسة العيوب الكلامية[7] والاضطرابات اللغوية[8] ذات أهميــة كبرى بالنسبة الى هذا الموضوع . ولا شك أن الدراسات الكلينيكية[9] للأفازيا[10] قد أفادت اللغويين بما ألقته على اللغة من ضوء . ولكن فى دراسة هذه الحالات المرضية يجب أن نظل الشخصية عاملا هاما ذا صلة وثيقة بالموضوع . ان الاهتمام بالشخص والشخصية يفيد فى جوانب كثيرة من الدرس اللغوى ، وفى دراسة الأسلوب[11] بوجه خاص ، ولكن ثمة حقائق وخصائص لغوية « غير شخصية »[12] وعلى الباحث اللغوى أن يجرد الخصائص الشخصية من الخصائص غير الشخصية[13] .

ج ــ وهذه الطريقة اذ تهتم بالشخص وبالشخصية فهى لا تنظر الى الشخص

(١) Neurology
(٢) Genetics
(٣) General Biology
(٤) Person
(٥) Personality
(٦) Endocrine Organs
(٧) Speech Defects
(٨) Language Disorders
(٩) Clinical Studies
(١٠) Aphasia
(١١) Stylistics
(١٢) Impersonal
(١٣) هذه الفقرة عن :
J.R. Firth : Personality and Language In Society, pp. 50 - 51.

على أنه « مستقل » ، انما تدخل فى حسابها أنه عضو فى جماعة كلامية معينة ، فهى — كما تدخل فى اعتبارها مقومات الشخصية وطبيعتها التى لها علاقة باللغة : بتعلمها ، وباستعمالها وبتطويرها الخ — تقيم نظرتها على أساس من **العوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة باللغة وبالسلوك اللغوى للشخص** ، على أساس من العلاقات الاجتماعية التى يرتبط بها الشخص ، ومن القيود الاجتماعية التى تفرض عليه والتى تلزمه بسلوك لغوى معين فى حالات معينة[1] . ولا شك أن هذه العوامل والظواهر والعلاقات والقيود تختلف من مجتمع الى مجتمع ، وتختلف فى المجتمع الواحد باختلاف العصور ان الاساس الاجتماعى فى دراسة « اللغة » ، وفى دراسة السلوك اللغوى للشخص أساس على جانب كبير من الأهمية : فاللغة الانسانية فى نشأتها — سواء أكانت أحادية المنشأ أم متعددته ، وأيا كانت الطريقة التى نشأت بها — من صنع المجتمع[2] ، وفى المجتمع يكون استعمال اللغة ، وتعلمها ، وتطورها ، كما أن تأثيرها كائن فيه .

ولذلك فان أى نص كلامى — ملفوظا كان أو مكتوبا — لا يوصل الى معناه الحق الكامل بدراسته وحده مستقلا ، بدراسته من الناحية الصوتية ، ومن الناحية النحوية ، ومن الناحية المعجمية ، بل يجب أن يدخل فى تقدير معناه عناصر أخرى غير العنصر الكلامى ، عناصر أخرى تكون هى والعنصر الكلامى كلا متكاملا ، فمن الواجب الاهتمام بالمسائل الآتية :—

(١) ما للمشتركين فى الموقف الكلامى من خصائص متصلة به ، خصائص متعلقة بأشخاصهم وشخصياتهم ، وبالعلاقات القائمة بينهم . وهؤلاء المشتركون هم

(١) انظر المرجع السابق ص ٤٢ — ٤٩

(٢) انظر الكلام عن «أصل اللغة» فى كتاب «اللغة» لـ « فندريس » تعريب الاستاذين عبدالحميد الدواخلى ومحمد القصاص (نشر مكتبة الانجلو المصرية ، طبع مطبعة لجنة البيان العربى ، القاهرة ١٩٥٠ م) ص ٢٩ — ٤٢ . وانظر الجزء الخاص بنشأة اللغة فى :

Otto Jespersen : Language
E.H. Sturtevant : Introduction to Linguistic Science.

وقد ظهر بالعربية حديثا كتاب للاستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى موضوعه « نشأة اللغة » .

المتكلم والسامع — أو والساممان أو والسامعون — (أو هم فى حالة النص المكتوب الكاتب ومن يقرأ) وغير من يتكلم ويسمع (أو غير الكاتب ومن يقرأ) من الحاضرين .

ويندرج تحت هذا النصوص الكلامية للمشتركين ، والأحداث غير الكلامية التى تصدر عنهم أو التى يتخذونها كالاشارات وتعبيرات الوجه والانفعالات وما الى ذلك .

(ب) الموضوعات (= الأشياء) المتصلة بالموقف الكلامى ، كالمكان الذى يجرى فيه الكلام ، أو حالة الجو ان كانت متعلقة بالموقف الكلامى الخ .

(ج) أثر النص الكلامى فى المشتركين ، كالاقتناع ، أو الضحك ، أو الألم الخ[1] .

(٢) هذا عن الدراسة الوصفية للغة « حية » ، أما **دراسة لغة « ميتة » فى مرحلة من مراحلها** ، فهى وان كانت فى جوهرها دراسة وصفية الا أنها تختلف فى أمور عن الدراسة الوصفية فى الحالة الأولى ، اذ انه فى الحالة الثانية لا يتسنى للغوى الوقوف على كثير من الظروف التى كان يستعمل فيها الكلام ، ولذلك فهو فى حاجة الى الاستعانة بالمعلومات التاريخية عن المجتمع صاحب اللغة فى الفترة التى يدرسها ليتأتى له اعادة بناء شىء قريب من الظروف التى كان يستعمل فيها الكلام الذى يدرسه . ومن الثابت أن النتائج التى يصل اليها اللغوى أحيانا فى هذا المجال لا تكون دقيقة أو كافية .

(١) هذه العناصر الثلاثة هى عناصر التصور الذى يدعوه الاستاذ فيرث Context of Situation ، انظر المرجع السابق ص ٦ — ٩ ، وانظر تفسير الاستاذ فيرث لهذا التصور فى كتابات أخرى له هى :—

1) Speech (Benn, 1930) pp. 38 - 43.
2) Linguistics and the Functional Point of View (English Studies XVI. 1, February, 1934.
3) The Use and Distribution of Certain English Sounds (English Studies XVII. 1, February, 1935).
4) The Technique of Semantics (Transactions of the Philological Society, 1935, pp. 64 - 72).
5) Tongues of Men (Watts & Co., London, 1937) Chapter X.

وانظر عرض الدكتور تمام حسان لهذه الفكرة فى كتابه « مناهج البحث فى اللغة » ص ٢٦١ — ٢٦٩

وما من شك فى أن **الدراسة الوصفية لمرحلة قديمة من مراحل لغة لا تزال تجرى على الألسنة** ، تختلف كذلك عن الدراسة الوصفية للمرحلة الراهنة لهذه اللغة أو لسواها ، ففى الحالة الأخيرة يتاح للغوى — كما بينا — أن يدرك الحقائق « غير اللغوية » التى يحتاج اليها فى دراسة المعنى ؛ وهذه الحقائق يكون الوصول اليها فى الحالة الأولى عن طريق التصور استعانة بالمعلومات التاريخية كما هو الشأن فى دراسة مرحلة من مراحل لغة « ميتة » .

(٣) ثم ان **دراسة تغير المعنى** من مرحلة الى أخرى فى اللغة الواحدة تتبع منهجا تاريخيا له اعتباراته وشروطه الخاصة ؛ ومن أول هذه الشروط دراسة كل مرحلة من المراحل على حدتها دراسة وصفية قبل الانتقال الى الدراسة التاريخية أو التطورية [1] .

والدراسة اللغوية محوجة ، فى بعض جوانبها — كالمقارنة بين لغتين أو أكثر من بعض الوجوه — الى اصطناع منهج آخر هو المنهج المقارن [2] ؛

(١) دراسة اللغة فى فترة معينة من تاريخها توصف بالفرنسية بأنها :
Description أو Statique أو Synchronique
ويقابل هذا بالانجليزية : Synchronic (Synchronistic) أو Static أو Descriptive
وترجمة هذا بالعربية : سكونية (= ساكنة . استقرارية = مستقرة = حال الاستقرار)، او ثابتة (= حال الثبات) أو وصفية .
أما دراسة اللغة من حيث تغيرها من فترة الى أخرى فتوصف بالفرنسية بأنها :
Historique أو (Dynamique) Evolutive أو Diachronique
ويقابل هذا بالانجليزية Diachronic (Diachronistic) أو Dynamic أو Historical
وترجمة هذا بالعربية : حركية (= متحركة)، أو تطورية أو تاريخية .
وكان فرديناند دى سوسير ، العالم السويسرى ، أول من ميز تمييزا علميا بين هاتين النظرتين ، كما كان له فضل ادخال المصطلحين :
Diachronique و Synchronique
,, ولقد أبرزت محاضرات فرديناند دى سوسير (ولد سنة ١٨٥٧ ومات سنة ١٩١٣) التى نشرها تلاميذه سنة ١٩١٦ اهمية الفصل القاطع بين هاتين النظرتين : بين اللغة من حيث هى نظام ثابت ، وبين اللغة من حيث هى تغير لغوى . وأصر دى سوسير على ضرورة الفصل القاطع بين دراسة اللغة حال ثباتها ، وبين دراستها حال حركتها. كما بين أن كل دراسة من هاتين يجب أن يكون لها مناهجها الخاصة بها.،، عن :
Alf Sommerfelt : Recent Trends in General Linguistics (Diogenes, Number 1, English Edition pp. 64 - 70. A Quarterly Publication of the International Council For Philosophy and Humanistic Studies, Unesco.)
(٢) Comporative Method . . . . . .

ولهذا المنهج ، شأن أى منهج ، شروطه واعتباراته ووسائله .

* * * *

بعد ذلك التعريف بوظيفة اللغة تعريفا مخالفا للتعريف « الكلاسيكى » لها ، وبعد هذا البيان الموجز لطريقة دراسة هذه الوظيفة ، نشرع فى تناول طائفة من المسائل الهامة التى تندرج تحت « اللغة والمجتمع » فنبيّن أنواعا من العلاقات المتبادلة بين اللغة والمجتمع ، مبرزين أنواعا مختلفة من الوظائف اللغوية . وليس القصد من تناول هذه المسائل فى هذا المجال أن ندرسها دراسة مفصلة كاملة فهذا محوج الى فضل زمان ومكان ، ولا ينهض به حق نهوضه الا طائفة متعاونة من العلماء ؛ انما القصد أن نعرض تخطيطا للموضوع يبرز ماهية كل مسألة من المسائل ، ويوضح طرائق دراستها ، وينبه الى ما قد يكون فى دراسة بعض المسائل من فجوات . وقد نفصل أحيانا قليلة فى بيان بعض ما نذهب اليه على سبيل التمثيل . وسنرى أن هذا العرض ، ببيانه للدور الذى تقوم به اللغة فى حياة الفرد والجماعة والنوع الانسانى، يدنينا من فهم حقيقة « اللغة » ؛ وأنه يشرع للدراسة اللغوية ، لا سيما فى حالة العربية فصيحها وعاميها ، مجالات جديدة واسعة تصطنع فيها مناهج ووسائل حديثة دقيقة . وسنرى كذلك أنه عند بحث الموضوع الواحد يحوج الأمر الى أن نستخدم مع المنهج الوصفى المنهج التاريخى أو المنهج المقارن أو كلا المنهجين ، مع الاحتفاظ لكل بمجاله وشروطه ، أى دون الخلط بينهما أو بينها .

السلوك اللغوى للطفل

(١) من جوانب دراسة السلوك اللغوى للشخص ، ومن أول ما يهدينا فى سبيل فهم الوظيفة الاجتماعية للغة ، دراسة السلوك اللغوى للطفل : كيف يكتسب الطفل لغة الجماعة التى يولد فيها ويعيش ؟ هل يتعلمها دفعة واحدة أو أنه يتعلمها على مدى طويل ؛ وعلى مراحل متدرجة ؟ ما الظروف التى يتعلم فيها الطفل اللغة ؟ أهو يتعلمها وحده أم هو يتعلمها بعون ؟ واذا كان يتعلمها بعون فما حقيقة هذا العون ؟ أثمة مدة واحدة يستغرقها الاطفال جميعا لتعلم اللغة أم أن هذه المدة تتفاوت من طفل الى طفل ؛ أو من جماعة من الأطفال الى جماعة أخرى ؟ واذا كان تفاوت فى هذا الشأن فما أسبابه ؛ وما ظروفه ؛ وما نتائجه ؟ ثم هـذه اللغة التى يتعلمها الطفل ، ما دلالتها بالنسبة اليه ؟ وما دلالتها بالنسبة لمن حوله ؟ فيم يستعملها ، وما ظروف استعماله اياها ؟ الى غير هذا من عشرات الاسئلة .

ان أول ما نقرره فيما يتعلق بالسلوك اللغوى للطفل أنه لا توجد حتى الآن دراسة علمية كاملة موثوق بها لـ « لغة » الطفل قائمة على أساس لغوى . وأكثر ما كتب عن لغة الطفل قائم على أسس نفسية ، ومن وجهة نظر علم النفس على اختلاف مذاهبه ، وهو غالبا ما يستهدف الاهتداء الى خير الوسائل المعينة على تعليم اللغة للأطفال وللكبار ، وعلى تعليم الطفل لغة أجنبية ، كما أنه يرمى الى التوصل الى بعض الحقائق التى تعنى علم النفس .[1]

(١) فيما يلى بيان بطائفة من أشهر الدراسات المتداولة عن لغة الطفل :

Bühler, Charlotte : (1) The First year of Life ; New York, U.S.A., 1930 (Trans. from German)
(2) From Birth to Maturity ; Kegan Paul, London, 1937

Descoeudres, A. : Le Developpement de l'enfant, de deux a sept ans ; Delachaux & Niestlé, Neuchatel & Paris, 1948.

Gesell, A. & Others : The first five years of Life; Methwen & Co. Ltd., London, 1940

Gesell, A. : Studies in Child Development, New York, 1948.

Grégoric, A. : L'Apprentissage du Langage, les deux premières années ; Alcan Paris, 1937.

Grégorie, A. : L'Apprentissage du Langage, la 3 ème année et les années suivantes; Alcan, Paris, 1947.

Guillaume, P. : L'Imitation chez l'Enfant ; Presses Universitaires de France, Paris 1950.

Lewis, M.M. : Infant Speech ; Kegan Paul, London, 2nd ed., 1951.

McCarthy, D. : The Language Development of the Pre-School Child ; University of Minnesota Press, U.S.A. 1929.

Piaget, J. : Le Langage et la Pensée chez l'Enfant. Delachaux & Niestlé, Neuchatel & Paris, 1923.

Piaget, J. : La Fonction du Symbole chez l'Enfant.

Seth and Guthrie : Speech in Childhood ; Oxford University Press, 1935.

Shirley, Mary : The first two years, a study of twenty five Babies. The University of Minnesota Press, U.S.A., 1933.

Stein, L. : The Infancy of Speech and the Speech of Infancy ; Methwen & Co., London, 1949.

Stern, W. : Psychology of Early Childhood up to the sixth year of age ; G. Allen & Unwin Ltd., London, 1924.

هذا عدا عشرات المقالات فى المجلات العلمية لا سيما مجلات علم النفس .

وقد ظهر بالعربية حديثا كتاب عنوانه ,, اللغة عند الطفل من الميلاد الى السادسة ،، للأستاذ صالح الشماع (ملتزم الطبع والنشر دار المعارف ، مصر سنة ١٩٥٥) ، وهذا الكتاب هو الرسالة التى نال بها الأستاذ الشماع درجة الماجستير (قسم الفلسفة ـ كلية الآداب ، جامعة القاهرة) وقد نشر ضمن سلسلة ,, منشورات جماعة علم النفس التكاملى ،، التى يشرف على اصدارها الدكتور يوسف مراد ، وقد كتب الدكتور يوسف مراد ـ وكان الاستاذ المشرف على الرسالة ـ مقدمة هذا الكتاب .

وقد ذكر المؤلف فى تمهيده (ص ١) والمقدم فى مقدمته (الصفحة الثانية) أن هذا البحث يطبق ,, المنهج التكاملى ،، . قال صاحب الرسالة (تمهيد ص ١) أنه لا يتقدم بأية نظرية جديدة ,, وأننا منذ أقدمنا على اختيار هذه الرسالة كان رائدنا بضعة توجيهات وخطوط عامة سلمنا بها دون نقاش وأخذنا أنفسنا بتطبيقها وفى مثل هذا التطبيق يكون التقدير النهائى لعملنا . وان أهم هذه الخطوط والتوجيهات ليهى فكرة « التكامل » التى نشأنا عليها . . . ،، . ثم ذكر (تمهيد ص ٢) أن تطبيق المنهج التكاملى يسر له ألا يتقيد بمدرسة دون أخرى فى دراسة ظاهرة معقدة كاللغة ، فاستفاد من شتى المذاهب والاتجاهات ، ولكنه اهتم اهتماما خاصا بمناقشة آراء ثلاث من مدارس علم النفس وهى مدرسة التحليل النفسى ، والسلوكية ، والجشطلتية ولم ينس جهود علماء آخرين .

. . . . . .

= وقال الدكتور يوسف مراد فى مقدمته (الصفحة الثانية) : ,, ويكفى أن نلقى نظرة سريعة الى اللغة لندرك على الفور أن دراستها لا يمكن أن تقوم الا على المنهج التكاملى اذ لا بد من تضافر عدد كبير من العوامل الفسيولوجية والنفسية والاجتماعية لكى تنشأ اللغة وتتطور حتى تصبح أداة ممتازة للتعبير والاتصال بالآخرين . ،، (لاحظ أن هذا الكلام يفهم منه أن صاحبه يرى أن وظيفة اللغة ، او وظيفتها الرئيسية على الأقل ، هى أن تكون « أداة ممتازة للتعبير والاتصال بالآخرين » وقد سبق لنا أن ناقشنا هذا الرأى). ثم قال (نفس الصفحة) :

,, وقد أدرك مؤلف هذا البحث ، الاستاذ هادى صالح الشماع ، ضرورة تطبيق المنهج التكاملى فى دراسة نشأة اللغة وتطورها فى الطفولة . فبعد أن تحدث عن مناهج دراسة اللغة تناول الأسس البيولوجية للكلام ، واللغة عند الحيوان ، اى انه نظر الى اللغة من حيث هى مظهر من مظاهر السلوك العام وان دراسة المعالم الاولى للغة الانفعالية تعين فى فهم اللغة التصورية التى ترتقى تدريجا نحو مستوى التجريد والتعميم . وفى هذه المرحلة التى تتحول عندها اللغة من مستواها الانفعالى البحت الى مستواها التصورى نلمس ما بين العوامل الفسيولوجية والنفسية من تضافر وثيق .

وبعد أن تحدث المؤلف طويلا عن المادة الأولية للغة من صراخ وأصوات ومناغاة انتقل الى وسائل اكتساب اللغة مبرزا أثر العوامل الاجتماعية فى تطورها وارتقائها . ،،

والذى نراه ان هذا البحث يقوم فى جملته على أسس نفسية ، وهو صادر عن ثقافة نفسية ، وينظر الى لغة الطفل من وجهة نظر على النفس فى الأغلب ، وان اتبع ما يسمى المنهج التكاملى ، وان ذهب صاحبه الى أنه يؤكد على الجانب الاجتماعى توكيدا كبيرا (ص ١٦٧) ؛ والدكتور مراد ينظر الى هذا البحث على أنه ,, جدير بأن يحتل مكانة ممتازة بين المراجع العربية الخاصة بالعلوم السيكولوجية ،، (الصفحة الثالثة من المقدمة) .

وليس هذا البحث محاولة لوصف لغة طفل مصرى مثلا أو لتدوين ملاحظات عن لغة مجموعة من الاطفال الذين يتكلمون لغة واحدة ، ولكنه أشبه بالعرض لطائفة من أهم النتائج التى وصل اليها جمهرة من درسوا لغة الطفل على اختلاف مذاهبهم ومناهجهم ولطائفة من أبرز الآراء التى ذهبو اليها مع محاولة الاختيار منها . فقيمة الكتاب ـ وليس هذا بالأمر الهين ـ أنه يقدم الى قراء العربية تعريفا من وجهة نظر صاحبه ـ بما وصلت اليه دراسة لغة الطفل عند جماعة من الغربيين . ولذلك فالكتاب يصلح ان يكون دافعا ومدخلا الى دراسة لغة الطفل . ونرجو أن يتبع هذا العمل أعمال أخرى بالعربية تحاول أن تدرس لغة الطفل ، أو جوانب من لغته ، على أسس لغوية . وهذه الدراسات يحتاج القائمون بها الى التزود بثقافة لغوية حديثة ، ولا يفى بالقيام بها التزود بنظريات علم النفس على اختلافها : يحتاجون الى دراسة علم اللغة العام لتكون لديهم فكرة صحيحة عن ماهية اللغة ، وعن طرائق دراستها ؛ وعن وسائل هذه الدراسة ؛ وهم محتاجون على وجه الخصوص الى اتقان علم الاصوات اللغوية نظرا وعملا فمن الضرورى أن تقوم دراسة لغة الطفل منذ أوائل مراحلها على وصف صوتى دقيق .

أما ما كتبه بعض علماء اللغة عن لغة الطفل على أسس لغوية فلا يبلغ أن يكون دراسة كاملة ، انما هو تخطيط لخير الطرق المؤدية الى هذه الدراسة ، وتدوين لطوائف من الملاحظات ، وتنبيه الى ما فى هذه الملاحظات من ثغرات : ان ما صنعوه هو محاولة لتفهم المشكلة ، وبيان لأهميتها ، ودعوة علمية الى بحثها أكثر من أن يكون حلا لها كاملا أو أشبه بالكامل .

(٢) ونأخذ الآن فى عرض مجمل لبعض الملاحظات الهامة التى توصل اليها طائفة من اللغويين فيما يتعلق بلغة الطفل .

١ ـ يرى جماعة من علماء اللغة المحدثين ـ ومنهم الاستاذ فيرث[1] ـ أن تتبع النمو اللغوى للطفل يجدر أن يكون مرتبطا بالتجارب الهامة التى تمر بها حياة الطفل ؛ وهذه التجارب الهامة ، فى رأى الأستاذ فيرث ، هى :ـ

١ ـ المرحلة الأولى ، مرحلة المهد [2] ، وهى منذ ولادة الطفل الى ما قبل استطاعته الجلوس .

٢ ـ مرحلة الجلوس[3] ، وفى هذه المرحلة يكون بدء الكلام[4] ، واللعب بالدمى وما اليها .

٣ ـ مرحلة الحبو[5] ، وفى هذه المرحلة يتسع عالم الطفل شيئا ما ، لأن الحبو ينقله الى أبعد من مجلسه .

٤ ـ مرحلة السير بمساعدة[6] ، وفى هذه المرحلة ينتقل الطفل الى عالم أرحب .

٥ ـ مرحلة سير الطفل وحده[7] فى الأماكن القريبة من المنزل .

(١) J.R. Firth عن محاضراته فى علم اللغة العام بمعهد الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن وقد استمعت اليها من ١٩٤٨ ـ ١٩٥١م.

(٢) Nursery . . . . . .
(٣) The Sitting-Up Stage . . . . . .
(٤) Speech . . . . . .
(٥) Crawling About . . . . . .
(٦) Walking with Help . . . . . .
(٧) Walking alone . . . . . .

٦ ــ مرحلة السير خارج المنزل[1]، وفى هذه المرحلة يستشعر الطفل حرية لا يجدها فى المرحلة التالية .

٧ ــ مرحلة الذهاب الى المدرسة ، وهذا فى المجتمعات التى يكون بها « مدارس » ، أو مرحلة التربية الخاصة التى يتلقاها الطفل من بيئته لتأهيله لنوع من العمل فى المجتمعات التى ليس بها « مدارس » . وهذه المرحلة من أهم المراحل بالنسبة للغة .

ب ــ هذا ترتيب مقترح لسير « الدراسة » ، ولكن الترتيب الذى تسير عليه «الدراسة» شىء يختلف عن الترتيب الذى تقرر فيه نتائجها . ومن ثم فاننا ، فى عرض الملاحظات الخاصة بلغة الطفل ، سنتبع التقسيم الثلاثى الذى ارتضاه العالم الدنمركى الكبير « أوتو يسبرسن »[2] وهو أن النمو اللغوى للطفل يستغرق ثلاث مراحل هى :ــ

١ ــ مرحلة الصياح[3]

٢ ــ مرحلة البأبأة[4]

٣ ــ مرحلة الكلام[5] التى تنقسم الى فترتين (أ) فترة «اللغة الصغيرة»[6]، أى اللغة الخاصة بالطفل ، وفى هذه الفترة يكون الطفل من الوجهة اللغوية « متفردا » ، (ب) وفترة اللغة المشتركة[7] ، أو لغة الجماعة ، وفى هذه الفترة يأخذ خضوع الطفل للمجتمع وتأثره به فى الازدياد شيئا فشيئا .

والآن نشرع فى التعريف بالخصائص العامة للغة الطفل فى كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث .

---

(١) Walking Outside . . . . . .

(٢) Otto Jespersen : Language, Its Nature, Development and Origin ; P. 103 .

(٣) Screaming Time . . . . . .

(٤) Babbling time ; Cooing time ; Crowing time . . . . . .

(٥) Talking time . . . . . .

(٦) Little Language . . . . . .

(٧) Common Language . . . . . .

١ ــ مرحلة الصياح[1] :

وهذه المرحلة تمتد من مولد الطفل الى حوالى الاسبوع الثالث من عمره ، وقد تستمر الى حوالى الاسبوع السابع أو الثامن .

ان الطفل يقابل العالم ساعة يولد بصراخ وصياح ، ولكن هذا الصراخ الصادر عن « جهازه الصوتى » ليس «كلاما »[2]، ليس من كلام جماعته ، ولا هو من كلام أى جماعة تتكلم بلغة أخرى غير لغة جماعته . وهذا الصراخ لا يدل وحده على أن الطفل لو قطع عن المجتمع كل القطع فسينطق يوما ما بكلام جماعته ، أو بكلام أى جماعة غيرها . ذلك لأن الطفل لا يتلهم لغة جماعته ، أو أية لغة ، الهاما ، ولا هو يبتكر النطق بها ، أو بسواها ، ابتكارا ، ولكنه يمر ، وهو فى مجتمع ما ، بمراحل طويلة وشاقة حتى يستطيع أن يتفاهم مع من حوله بلغتهم ، يمر بمراحل أولها هذه المرحلة ، مرحلة الصياح .

ان الصيحات التى تصدر عن الاطفال فى هذه المرحلة صيحات « عامة » تكاد تكون واحدة عند جميع الاطفال . وعلى الرغم من أن الصياح ليس « كلاما » ، وليس الأصل فيه أن الطفل يريد أن « ينقل » شيئا ما الى غيره ، الا أنه ، بالنسبة لمن حول الطفل من الكبار ، يحدث شيئا مما يحدثه الكلام . فهم « يقرأون » فيه شيئا ما ، ويهرعون الى الطفل عند سماعهم صياحه لازالة ما به من ضيق . وانه ليأتى وقت يلاحظ فيه الطفل أنه عندما يصيح فان شخصا ما يهرع اليه ويرضيه بشىء ما ، ولو كان هذا الارضاء بمصاحبته اياه ليس غير .

وعندما يدرك الطفل هذا فانه يستعمل الصياح استعمالا اراديا عندما يقع فى ضيق ، أو عندما يريد شيئا ما . وهكذا تغدو الصيحة عملا اراديا[3] بعد أن كانت

---

(١) انظر يسبرسن : المرجع السابق ص ١٠٣ ــ ١٠٤

(٢) Speech . . . . . .

(٣) Voluntary Action . . . . . .

فى أول أمرها عملا انعكاسيا[1] .

ولكن للصياح فائدة أخرى غير هذه ، هى فائدة فسيولوجية ، فهو تدريب لجميع العضلات والاعضاء التى سيستعملها الطفل ، فيما بعد، فى البأبأة، والكلام، والغناء، وتقول بعض المربيات ، وقد يكون فى كلامهن معنى ما ، ان الطفل الذى يكون أعلى صياحا يصبح عندما يكبر خيرا من سواه غناء .

٢ — مرحلة البأبأة : ٢

لا تبدأ هذه المرحلة قبل الاسبوع الثالث من حياة الطفل ، وقد لا تبدأ قبل أسبوعه السابع أو الثامن ، وهى تمتد الى حوالى نهاية السنة الاولى من عمر الطفل .

تصدر عن الطفل فى هذه المرحلة أصوات ، ومجموعات من الاصوات مثل ، ا ، آم، بَبَ، تَتَ، دَدَ الخ[2] . ولا شك أن هذه الاصوات ألطف مما كان يصدر عنه فى مرحلة الصياح ، وأشد ملاءمة لأغراض الكلام . والأصوات ، أو مجموعات الاصوات ، التى تصدر عن الطفل فى هذه المرحلة ، لا معنى لها .

والأصوات التى تصدر عن الطفل فى أوائل هذه المرحلة لا ينطقها قاصدا أو مقلدا للأصوات التى يسمعها ممن حوله ، انها نشاط عضلى خالص وبسيط كتحريكه أصابعه ، أو يديه ، أو ذراعيه ، أو رجليه . والطفل يجد من اللذة فى اصدار هذه الأصوات ما يجده من لذة فى تحريك تلك العضلات الاخرى . والدليل على ذلك أن الاطفال الصم البكم[4] تصدر عنهم أشباه هذه الاصوات وهم بطبيعة الحال لا يسمعونها ، ولا يسمعون كلام من حولهم ليقلدوه . ولكن اذا كانت حركات أعضاء النطق عند الطفل لا تحكم فيها ، ولا سيطرة عليها أول الأمر فانها تأخذ شيئا فشيئا فى أن تصبح أشد انتظاما ، فيعرف الطفل الصوت الذى يريد أن ينطقه ، ويكون فى وضع يمكنه من أن ينطقه بالضبط .

(١) Reflex Action
(٢) انظر بيسبرسن : المرجع السابق ص ١٠٤ — ١٠٥
(٣) aa ; am ; baba ; tata ; dodo. etc.
(٤) Deaf-Mutes

واذا كان الطفل فى أوائل هذه المرحلة ينطق أصواته غير قاصد ، وغير مقلد لأنه لا يسمع ، فانه يصل الى وقت تقوى فيه حاسة سمعه ، ويجد متعة أى متعة فى سماع الأصوات التى يخرجها هو نفسه . ثم تحدث خطوة بالغة الاهمية عندما يأخذ الطفل فى سماع مشابهة بين الاصوات التى تنطقها أمه أو مربيته وبين تلك التى ينطقها هو نفسه . ان الأم عندما تسمع طفلها يخرج صوتا أو مقطعا[1] فانها تقبل عليه مسرورة مكررة ما أخرجه من صوت أو مقطع، وعندما يدرك الطفل الشبه أو المماثلة بين ما ينطقه هو نفسه وبين ما ترددده أمه فانه يقع على منبع من المتعة لا يغيض . وهو يصل بعد ذلك الى المرحلة التالية ، عندما يحاول هو نفسه أن يقلد ما يقال له (وهذا يكون عادة حوالى نهاية السنة الاولى) .

ان الطفل فى حوالى نهاية فترة البأبأة يكون قد تمكن من نطق عدد كبير من الاصوات . وهو فى هذا الوقت يحب ان يكون سلاسل طويلة من مقطع واحد مثل تتتتتت .. ، و وَوَوَوَوَوَ .. ، و نِنِنِنِنِنِ .. و دَدَدَدَدَ .. الخ[2] .

ولقد حاول معظم من عنوا بتتبع لغة الطفل ترتيب الاصوات المختلفة التى ينطق بها الطفل فى هذه المرحلة ، وفيما يليها ، ترتيبا زمنيا ، ولكنهم لم يتفقوا فى هذا الشأن فى جميع التفصيلات . والشائع أن أول ما ينطقه الطفل «صوائت مفردة»[3] ، أو صوائت يسبق كلا منها «صامت»[4] واحد وذلك مثل لَ بَ رِ تَ الخ[5] . وان الاصوات الأولية التى ينطقها الطفل ، ان كنا نمثلها بالرموز الكتابية التى نمثل بها بعض أصواتنا ، فهذا من باب التجوز ، فانها ليست فى الحقيقة هى نفسها : فما نمثله من أصوات الطفل بـ « ل » و « ر » الخ ليس مطابقا لما نمثله من أصواتنا بهذه الرموز . ويتفق دارسو لغة الطفل على أن « الصوامت الشفوية[6] » (التى يرمز اليها بـ[7]) من

(١) Syllable
(٢) tatatatata.... wawawawawa..., nenenenene..., dododododo..., etc.
(٣) Single Vowels
(٤) Consonant
(٥) la, re, to etc.
(٦) Labial Consonants
(٧) P, b, m

الصوامت الاولى التى ينطقها الطفل ، ان لم تكن أولها على الاطلاق[1] .

ومما يلاحظ أن الطفل فى مرحلة البأبأة قد تصدر عنه أصوات ليست من جملة الاصوات التى تتكون منها لغة الجماعة التى سيستعملها يوما ما . فالطفل المصرى مثلا قد تصدر عنه فى هذه المرحلة أصوات لا يسمعها ممن حوله (وذلك كالأصوات التى يرمز اليها كتابة بـ ٢)، وقد تصدر عنه أمثال هذه الأصوات فى أوائل مرحلة البأبأة حين لا يكون ثمة قصد الى احداث أصوات معينة ، أو الى تقليد أصوات معينة . ان الذى يحدث أن الطفل يحرك أعضاء نطقه تحريكا متحررا فيحدث أنها أحيانا تتخذ الأوضاع الخاصة بنطق هذه الأصوات فاذا بها تصدر عنه . وقد يحدث أن طفلا ممن كانت تصدر عنهم فى مرحلة البأبأة ، أو بعدها ، أصوات ليست من جملة الأصوات الرئيسية للغة الجماعة التى سيتكلم بها يوما ما ، يجد صعوبة فى تكوين هذه الأصوات نفسها فيما بعد عند ما يكون قد تعلم لغة جماعته وأخذ فى تعلم لغة أجنبية تستعمل هذه الأصوات . ومرجع ذلك الى أن الطفل فى مرحلة البأبأة ، وفى أوائل مرحلة الكلام، ينطق عددا من الأصوات أكبر مما تستعمله اللغة التى عليه أن يتعلمها ، ولكن تعلمه الطويل لهذه اللغة (بما فيه من كثرة سماع أذنه لأصوات محدودة ، ومن تقليده لهذه الأصوات ، ومن تصحيح الكبار للأصوات التى ينطق بها حتى تتفق مع أصوات لغتهم أو تقرب منها . . الخ) ينتج عنه أن تمرن أذنه على سماع أصوات خاصة ، وتمرن أعضاء نطقه على احداث أصوات معينة ، فاذا أراد أن ينطق أصواتا أجنبية عن تلك التى بذل مجهودا شاقا لتعلمها فان أعضاء نطقه لا تكون له طبعة سلسة .

---

(١) يقول يسپرسن (ص ١٠٥ من كتابه السابق) :
لقد فسر هذا بأن الطفل يستطيع أن يرى تحرك شفتى أمه وهى تنطق هذه الاصوات ، وهكذا يقلد حركاتها . ولكن هذا التفسير يتضمن أن الطفل يقوم بدرجة كبيرة من التفكير الواعى ، هذا الطفل الذى ينطق م أو م قبل ان يأخذ فى تقليد أى شىء يقوله له من حوله . وفضلا عن هذا فلقد قيل ان انتباه الطفل لا يكاد يتجه الى فم أمه بل هو مركز دائما على عينيها . ان الارجح أن السبب الحقيقى فى هذا هو أن العضلات الشفوية المستخدمة فى نطق ب أو م هى نفس العضلات التى دربها الطفل فى الرضاعة من ثدى أمه أو من زجاجة . وانه لمن المهم فى هذا الشأن أن نعرف الصوامت الأولى التى ينطقها الاطفال العميان أهى الصوامت الشفوية أم غيرها .

(٢) P ; V etc., ...

٢ — مرحلة الكلام : [1]

تبدأ هذه المرحلة من حوالى نهاية السنة الأولى من عمر الطفل وتمتد سنوات طويلة . ولما كانت هذه المرحلة طويلة وتشتمل على فترات متغايرة متمايزة ، فقد رأى الأستاذ يسپرسن أن يقسمها الى فترتين : (ا) فترة اللغة الصغيرة و (ب) فترة اللغة المشتركة . والحق أن هذا التقسيم هو أيسر ما يمكن أن يكون لتقرير نتائج الملاحظة والدراسة ، ولكن الواقع أن الطفل فى تعلمه الكلام يمر فى كل فترة من هاتين بظروف كثيرة متغايرة قد يعتبر بعضها فترات مستقلة متمايزة .

ا ـ فترة اللغة الصغيرة :

والمقصود باللغة الصغيرة اللغة التى يحدثها الطفل لنفسه بتقليده تقليدا غير محكم كلام من حوله من الكبار . والطفل فى هذه الفترة « متفرد »[2] شيئا ما من الناحية اللغوية. فالكلام الذى ينطق به يبعد بعدا بينا عن « الأصل » الذى يحاول أن يقلده . وكثير مما ينطقه فى هذه الفترة لا يكون مفهوما الا فى نطاق بيئته الضيقة : أمه ، وأبيه ، واخوته ، ومن اليهم ممن يعيشون معه . وبديهى أن الأم، أو من يقوم مقامها ، هى خير من يفهم كلامه ، أما غير من حوله من صغار وكبار فقد يفوتهم كثير من معانى ما ينطقه . ان كلام الطفل فى هذه المرحلة يبدو تعسفيا حتى أنه لتمكن مقارنته برسوم الطفل الأولى للرجال والحيوان (فقد يقول أحد الأطفال المصريين «مَ» بدلا من «مَيَّه» ، و «آيَه» بدلا من كتكاتايَه» ؛ و«كَ» بدلا « اكرام » ، و « بِ » بدلا من « عيش » . . الخ) .

ب ـ فترة اللغة المشتركة :

يأخذ الطفل شيئا فشيئا من التخلص من خواص لغته الصغيرة الفردية الى أن يصبح كلامه أشد انتظاما ، وأقرب الى كلام الكبار ، وأوضح عند من يحيطون به وعند الغرباء جميعا . ويستغرق الامر زمنا طويلا حتى يصير كلام الطفل « مثل » كلام الكبار ، أى حتى يتقن الطفل الكلام باللغة التى تتكلم بها جماعته .

---

(١) انظر يسپرسن : المرجع السابق ص ١٠٦ — ١٠٧ .
(٢) Individualist . . . . . .

فى أوائل هذه المرحله يكون كلام الطفل أشد انتظاما ، وان كان الطفل « يحرف » كثيرا من الكلمات العادية. ولكن العالم اللغوى يستطيع فى حالات كثيرة أن يكشف عن أسباب تحريفه للكلمات . وللطفل فى هذه الفترة « قوانينه » الصوتية الخاصة ، وقد يحوج الأمر الى عالم فى الأصوات اللغوية لفهم القوانين الصوتية الفردية لطفل من الأطفال .

ويلاحظ أن الطفل فى أوقات من هذه المرحلة (فى أوائلها خاصة) يجد صعوبة فى نطق بعض الأصوات عندما تكون جزءا من مجموعة ، أو مجموعـات ، من الأصوات ، بينما هو قادر على نطقها مفردة ، أو على نطقها عندما تقع فى مجموعة أو مجموعات صوتية أخرى . كما أنه لا يستطيع عادة أن ينطق سلسلة طويلـة متتابعة من المقاطع، وهو يفضل «الكلمات المكونة من مقطع واحد»[1] . وكثيرا ما ينطق الأطفال جزءا واحدا من الكلمة ، وهو غالبا ما يكون المقطع الأخير أو المقاطع الأخيرة منها ، وهذا يسمى بـ « الاختصار » أو « القطع »[2] . ومن المشاهد أن لغة الأطفال يكثر فيها « التضعيفات »[3] ، وليس المقصود بهذا تلك « التضعيفات » الموجودة بطبيعتها فى لغة الكبار ، بل تلك التى تكون من صنع الطفل نفسه ، فكثيرا ما يكون الأطفال كلمات من تلك التى يسمعونها ممن حولهم بأن يكرروا مقطعا واحدا من مقاطعها (بعض الأطفال الانجليز يقولون «پيپ» بدلا من «پنسل» ، و « كاك » بدلا « كرّى »[4]) كما أن بعض الأطفال يكررون كلمات كاملة (مثل « كنج كنج » و « رنج رنج »[5] بين الأطفال الانجليز) . وربما كان المرجع فى كثرة « التضعيفات » فى لغة الأطفال هو اللذة التى يستشعرها الطفل فى تكرار نفس الفعل العضوى حتى يصيبه الكلال[6] .

ومما يلاحظ أن الطفل يكون قادرا على ادراك نغم الكـلام الذى يسمعه قبل أن يفهم كلمة واحدة مما يقال له أو على مسمع منه بزمان طويل : فهو فى هذه المرحلة

---

(١) Monosyllables . . . . . .
(٢) Mutilation . . . . . .
(٣) Reduplications . . . . . .
(٤) "Pepe" instead of "Pencil" ; "Kaka" instead of 'Carrie' . . . . . .
(٥) King-King ; Ring-ring (=bell) . . . . . .
(٦) انظر المرجع السابق ص ١٠٨

يستطيع أن يميز بين الكلام الذى يوجه اليه بحب وعطف ، وبين ذلك الذى يوجه اليه بحدة وغضب، فتنبسط أساريره ويهش لسماع الكلام الأول، ويعبس ويجنح الى البكاء عند سماعه الكلام الثانى . وقد لوحظ أن كثيرا من الأطفال يستطيعون فى سن باكرة أن يدركوا النغمة[1] الصحيحة التى يقـال عليها شىء ما ، أو يغنّى عليها شىء ما[2] .

وهذا الحديث عن ادراك الطفل لنغم الكلام ينقلنا الى الحديث عن مسألة أخرى: ان الطفل لا يسمع أصوات اللغة مفردة ، ولكنه يسمع كلمات وجملا سواء أكانت هذه الكلمات والجمل موجهة اليه أم لم تكن بأن كان الكبار يتحدثون فيما بينهم على مسمع منه . وهو لا يتعلم الجانب الصوتى ، أى العنصر الخارجى ، للكلمات والجمل مستقلا عن معانيها المرتبطة بهـا ، أى عن عنصرها الداخلى ، ذلك لأن الجـانب الصوتى لأى كلمة ومعناها مرتبطان ارتباطا لا انفصام له بالنسبة للطفل ، كما هو الشان بالنسبة للكبار كذلك[3] .

وان الطفل يأخذ فى سن مبكرة فى ادراك أن للكلمـات مدلولات ، بل ان فهم الطفل لمعانى الكلمات دائما ما يسبق قدرته على أن ينطق هو نفسه نفس الكلمات التى يفهم معناها ، وغالبا ما يسبق هذا الفهم تلك القدرة بزمان طويل[4] (فالطفل قبـل أن يتمكن من نطق الكلمات يطلب منه مثلا أن يجلس فيجلس ، أو أن يقف فيقف، أو أن يحضر شيئا فيحضره ، أو أن يترك شيئا فى يده فيتركه وهكذا) .

وان الكيفية التى يكتسب بها الطفل معانى الكلمات على جانب عظيم من التعقيد والصعوبة ، فمن ذلك أن بعض الكلمات المختلفة المعنى متفقة صوتا ، وهذا من شأنه أن يوقعه فى الحيرة ، واذا كان الطفل يستطيع أن يدرك الكلمات التى تـدل على محسوسات يشار اليها وقد يستعملها (مثل : لبن — كرسى — تفاحة الخ) فكيف يدرك معانى الكلمات التى تدل على أمور معنوية ؟ ان فهمه لهذه الأخيرة يتأخر ، وغالبا ما يكون غامضا غير دقيق . ثم ان من الكلمات ما يستعمل استعمالا

---

(١) Tone . . . . . .
(٢) المرجع السابق ص ١١١ — ١١٢
(٣) المرجع السابق ص ١١٣
(٤) المرجع السابق ص ١١٢ — ١١٤

مجازيا ، وان الطفل ليتعثر فى ادراك هذه المعانى . ومما يصعب على الطفل ادراك معانى بعض الكلمات أن الكلمة قد يكون لها أكثر من معنى باختلاف بعض السياقات اللفظية التى تقع فيها ، أو باختلاف الظروف الخارجية المحيطة أو باختلاف النغمة التى تقال عليها ، أو لغير هذا . كما أن الطفل يجد صعوبة كبيرة فى ادراك فكرة الزمن التى تدل عليها بعض الكلمات . ولكن مما يعين الطفل على اكتساب المعانى أنه طلعة اذ يأتى عليه وقت من الأوقات يكثر فيه من السؤال عما لا يعرفه ، وعن أسمائه فيظل يردد « ما هذا ؟ » أو « ما اسم هذا ؟ » .

*****

يتعلم الطفل آخر الامر لغة جماعته . ومما يعينه على ذلك قدرته الفائقة على التقليد ، وشدة تطلعه ، وما يجده من عناية من حوله من الكبار لا سيما الام . فالأم ، أو من يقوم مقامها ، تظل «تناغيه» وتكرر على مسمعه ، دون أن تمل ، الكلمات والجمل والعبارات والاغانى والاناشيد حتى عندما تعرف أنه لا يفهم عنها ، ولكنهما يجدان فى ذلك من المتعة ما يدعوهما الى الاستغراق فيه ؛ وهكذا يسمع الطفل الكلمات والجمل مرات ومرات بطريقة محببة . والطفل يجد من تشجيع من حوله على محاولاته الكلامية ما ييسر له الطريق . كما أن الطفل يتفسح أمامه المجال لتصحيح أخطائه اللغوية فى نطق الاصوات ، أو فى صيغ الكلمات ، أو فى تركيب الجمل ، أو فى مدلولات الكلمات . فالأم والأب والاخوة والأخوات والأقارب والرفاق الكبار والخدم (ان كان ثمة خدم) لا يزالون يصححون له أخطاءه ، وان كانوا أحيانا يعملون على استبقاء بعض أخطائه استملاحا واستطرافا ، أو لغير ذلك من الأسباب ؛ وقد يصحح الطفل بعض أخطائه نتيجة لادراكه الخاص .

وللطفل قياسه اللغوى من النواحى الصوتية ، والنحوية ، والمعنوية ، فهو يقيس ما لم يسمع أو يدرك على ما سمع أو أدرك ؛ وهذا القياس يعين الطفل من جانب على تعلم اللغة ، كما أنه من جانب آخر يوقعه فى بعض الخطأ . ان الطفل فى مراحله الاولى لا يتهيأ له سماع جميع مفردات اللغة ، وكل صيغها وتركيباتها ، أو قد لا يذكر جميع ما يسمع ، أو قد لا يحضره جميع ما يعرف وقتما يريد ، كما أنه لا يتيسر له ادراك معانى جميع المفردات . فمن قياس الطفل النحوى أنه قد يسمع مثلا مذكر كلمة ولا يسمع مؤنثها ، أو قد يعرف مفرد كلمة ولا يعرف مثناها أو جمعها ، ولكنه يلحظ — ان كانت اللغة التى يتعلمها هى العامية المصرية — أن الكلمات المؤنثة

التى يعرفها تختم بتاء تضاف الى المذكر ، فاذا أراد نطق مؤنث «أخضر» قال «أخضرة» ، ومؤنث أحمر قال «أحمرة» بدلا من «خضرة» و«حمرة» وهكذا . وهو من كثرة سماعه لأسماء دالة على الجمع تنتهى بـ «ين» يعمم هذه الطريقة عندما يريد جمع كلمات لا تجمع فى المصرية بهذه الطريقة ، فيجمع « ولد » على « ولدين » مثلا وهكذا . وكثير من الاطفال المصريين يعممون طريقة النفى المستعملة فى حال الاسماء على بعض الافعال التى لا تنفى بهذه الكيفية فيقولون «مش جه» بدلا من «ما جاش» وهكذا .

ان **لكل طفل لغته** المميزة له ، لا بل ان لكل فرد لغته طفلا كان أو صبيا أو شابا أو كهلا أو شيخا ، ذكرا كان أو أنثى فى كل حال من هذه الاحوال . وأخطاء كل طفل تختلف عن أخطاء غيره من الاطفال الذين ينتمون الى جماعته الكلامية ، وان كان ثمة أخطاء عامة يشتركون فيها جميعا . والاطفال يتفاوتون فيما بينهم فى سرعة تلقيهم للغة ، وفى سرعة تصحيحهم لاخطائهم اللغوية ، كما يتفاوتون فى عدد المفردات التى يعرفها أو التى يستعملها كل منهم ؛ وهم كذلك يتفاوتون فى دقة الابانة عما يريدون ، وفى مسائل أخرى غير هذا كله .

— ٤ —

اللغة مميز فردى ومميز طبقى

(ا) ان اللغة علامة مميزة للفرد . وأول ما يبدو من تمييزها هذا هو اختلاف « الاصوات » الطبيعية للأفراد ، هذا الاختلاف الذى يرجع الى أسباب عضوية . نعم ان « الصوت » الطبيعى يميز جماعة الاطفال من جماعة الراشدين، ويميز كلا من هاتين الجماعتين من طائفة الشيوخ ، كما أنه يميز ذكور كل جماعة من هذه من اناثها، ولكن الأمر لا يقتصر على هذا النوع من التمييز بل انه ليمتد حتى يميز كل فرد من سواه . وان للصوت الطبيعى بهذا الاعتبار وظيفة ، فنحن نميز الشخص بصوته، نعرف أن فلانا هو فلان بسماعنا لصوته دون رؤية شخصه . فالصوت بهذا الاعتبار يكاد يكون صنو الجسم ، فكما يتمايز الافراد طولا وعرضا ، وسمنا ونحافة ، وبياضا وسمرة . . الخ . فهم يتمايزون أصواتا . ولما لم يكن للفرد دخل فى هذه الخاصة اذ أنه ليس كاسبها ، ولكنه ولد عليها (وقد يتخذ صوت فرد من الافراد صفة غير تلك التى ولد عليها نتيجة مرض أو حادث . . الخ .) فكل منا على هذا الاساس يولد منفردا . وان الأصوات الطبيعية للأفراد من العوامل التى تكيف المواقف التى تتخذها ازاءهم ، فقد يكون فى صوت من الأصوات ما يدعو الى السخرية والزراية ، وفى آخر ما يدعو الى الاعجاب والاقبال ، وفى ثالث ما يدعو الى النفور والابتعاد ، وفى غير هؤلاء ما يوجب التوقير والاحترام ، وهكذا . ومن وظائف الصوت الطبيعى أن سماعه — ولو لم يكن صاحبه يتوجه الينا بالكلام، بل دون رؤيتنا لصاحبه — يدفعنا الى نوع أو أنواع من السلوك : فالطفل يسمع صوتا من خارج البيت يعرف فيه صوت أبيه فيتهلل ويستطير ويصيح ويهرع الى لقياه ، أو قد يصيبه شىء من خوف . ويتكلف الجد ان كان أبوه شديد الوطأة عليه . وقد يسمع مرءوس صوتا قادما من خارج فيدرك فيه صوت رئيسه فيتصنع الانصراف الى العمل مثلا . وقد يطرق سمعنا صوت جميل لشخص حبيب فنتأهب خفافا للقياه مصلحين من شأن مظهرنا مثلا . وقد يسمع الجندى صوتا يتكلم كلاما لا يفهمه فيرى فيه عدوه فيسرع الى سلاحه مستعدا للفتك به ، وينذر زملاءه بمقدم العدو . كل هذا وليس ثمة « تخاطب » ، أو « اتصال » ، أو قصد الى الاتصال .

ومما يميز لغة فرد من فرد ما يكون لكل متكلم من « لوازم » لغوية . و «اللازمة» اللغوية قد تكون كيفية من نطق كلمة أو كلمات ؛ وقد تكون عبارة يكثر من ترددها ؛ وقد تكون كلمة أو جملة ينطق بها فى ظروف معينة ؛ وقد تكون لفظة أو ألفاظا لا يستعملها نظراؤه ويستعملها هو تعالما أو تباهيا أو تواضعا أو مريدا غير ذلك ؛ وقد تكون عيبا عضويا فى النطق كاللثغة أو الفأفأة أو التمتمة ؛ وقد تكون جمعا بين شيئين أو أكثر من هذا ؛ وقد تكون أمرا آخر يكفى سماعه أو ذكره لتحديد شخص القائل أو المتحدَّث عنه .

ان «اللازمة» اللغوية علامة دالة على الفرد قد يغنى ذكرها عن ذكر اسم صاحبها، وهى أشبه بالسمة العضوية البارزة البادية كجحوظ العين ، أو ضخامة الأنف ، أو الغرابة فى شكل اليد أو الاصبع . . الخ . ومن « اللوازم » اللغوية ما يثير الضحك على صاحبها ، ومنها ما يبعث على الضيق به ، ومنها ما ينشر جوا من الأنس اليه وهكذا ، فللازمة اللغوية أثر فى تكييف العلاقة بيننا وبين صاحبها .

ذكرنا أن الفرد لا يأخذ لغة جماعته الهاما، أو وحيا، أو ابتكارا، ولكنه يأخذها عن طريق التعلم الطويل الشاق فى سنوات طفولته الأولى ؛ وهو لا يزال يضيف الى لغته ، ويعدل فيها الى أن يموت . فمن الخطأ أن نتصور أن لغة الفرد تثبت على حال واحدة بعد انتهاء مرحلة الطفولة التى يصل عندها الى القدرة على التفاهم مع الكبار باللغة العامة المشتركة .

ومما يبين أن **لغة الفرد فى تغير** دائم أن الفرد لا يحيط بجميع مفردات اللغة العامة فى سن معينة ، بل انه لا يزال يسمع ألفاظا جديدة يضيفها الى ما يعرفه . فهو فى كل دور جديد من أدوار حياته ، وفى كل تجربة من التجارب الهامة التى يخضع لها يسمع ما لم يكن قد سمع . ولسنا فى حاجة الى أن نذكر أنه فى كل حال من هذه الاحوال لا يسمع مفردات جديدة فحسب ، ولكنه يسمع كذلك تعبيرات جديدة ، وطرائق من الكلام حديثة . ان الصبى فى المدرسة يتصل بزملاء له يختلفون عنه طبقة وسنا وتجربة فيسمع من أولاد من هم أغنى من ذويه كلمات وعبارات لا يعرفها ، ويسمع من أولاد من هم أدنى من أهله كلمات وعبارات لم يكن له بها علم ، بل انه ليسمع من أولاد نظراء أهله — ولو كانوا مثله سنا — كلمات وعبارات لم يسبق له أن سمعها من أبيه أو أمه ، أو من اخوته الكبار وسائر

من اتصل بهم من قبل . هذا بطبيعة الحال بالاضافة الى ما يسمعه من جديد الالفاظ المتعلقة بالدراسة ونظامها ، وبالسلوك الذى يفرض عليه وما الى ذلك . وعندما يتصل فرد بفرد من الجنس الآخر تتكشف له كلمات وعبارات جديدة ، وطرائق من الحديث لم يكن له بها عهد . ومعروف أن المتزوجين من الرجال والنساء لا يزال كل منهم يسمع من قرينه مفردات وعبارات لم تكن من جملة ما يعرفه . وهكذا فلغة الفرد الواحد فى زمن من الأزمان تختلف عن لغته فيما سبق هذا الزمان وفيما لحقه أو يلحقه .

* * * *

(ب) **وكما ان اللغة علامة فردية مميزة فهى كذلك علامة « طبقية » مميزة .**

ففى الجماعة الكلامية الواحدة تختلف لغة المتعلمين عن لغة الأميين ؛ والمتعلمون يختلفون لغة فيما بينهم باختلاف درجة تعلمهم ، وباختلاف مهنهم ، وباختلاف درجة ثرائهم وبسوى ذلك من الاسباب . ولغة الصيادين تختلف عن لغة النجارين وعن لغة الحدادين . . الخ . وكل من هذه تختلف عن لغة طلبة المدارس مثلا أو عن لغة الموظفين الحكوميين الخ . ولغة المسيحيين فى جماعة كلامية ما تختلف عن لغة من يدينون بالاسلام أو اليهودية مثلا من أفراد نفس الجماعة الكلامية . هذا بالاضافة الى مباينة لغة كل فرد من أفراد كل طائفة من هذه الطوائف للغة أى فرد آخر من أفراد الطائفة نفسها .

ان سماع فرد من الافراد وهو يتكلم لقاض بمستواه العقلى ، والمادى ، وبصفته الطائفية والمهنية . . الخ . وهكذا **فاللغة** قيد من القيود ، أو هى أشبه ، مع شىء من الفارق ، ببصمات الاصابع ، أو بالزى .

وان **تغيير الفرد للغته** المفصحة عن وضع طبقى معين حتى تصبح مثيلة للغة طبقة أعلى أو أدنى ، أو للغة طائفة أخرى من طوائف نفس الجماعة الكلامية لأمر جد عسير ؛ وهو يحتاج الى طول مران ، وتعلم شاق ، وحتى بعد هذا فقد تند عن الفرد ألفاظ أو تعبيرات تدل على أنه دخيل على هذه الطبقة الجديدة لا أصيل فيها .

وهذا يذكرنا بما صنعه برنارد شو فى مسرحيته « بيجماليون »[1] : فالأستاذ هيجنز[2] عالم الصوتيات اللغوية يلتقط بائعة الورد اليزا دوليتل[3] ، وهى فتاة فقيرة من أسرة متواضعة تتكلم اللغة اللندنية العامية ، ويتعهدها بالتعليم الصوتى واللغوى الشاق ، وبالتعويد على آداب السلوك الراقية ، حتى يصير حديثها كحديث سيدات الطبقة الأرستقراطية بلندن . ويقول برنارد شو فى مقدمة تأليفه هذا انه يقرر ، تشجيعا لأولئك الأشخاص الذين يتحدثون لهجات تقطعهم عن كل مركز رفيع ، أن ذلك التحول الذى أحدثه « هيجنز » فى بائعة الورد لا هو بالمستحيل ، ولا هو بالأمر غير المألوف . فكثير من ذوى الطموح من الرجال والنساء قد استطاعوا أن يكتسبوا « لهجة » جديدة راقية غير « لهجاتهم » الأصلية . وهو يقول ان كثيرا من العاملات والعمال بالمحلات الراقية بحى « وست اند » بلندن يتكلمون لغتين (وهو يقصد لغتهم الأصلية التى تنم عن وضع اقتصادى واجتماعى فقير حقير ، وتلك اللغة التى اكتسبوها من مخالطتهم الطبقة الأرستقراطية ومن تشبههم بهم فى حديثهم والتى يستعملونها فى مخاطبة أفراد هذه الطبقة وفى أدائهم عملهم على وجه العموم) . ولكنه يرى أن هذا التحول يجب أن يتم بطريقة علمية والا كانت الحالة التى ينتهى اليها الطامح الى اكتساب « لهجة » جديدة أسوأ من حالته اول الامر . وهو يحذر بائعات الورد اللائى يقرأن مسرحيته هذه أن يتخيلن أن فى استطاعتهن أن يصرن سيدات راقيات بالتقليد الذى لا معلم معه ، بل عليهن أن يتعلمن «الأبجدية» من جديد ، وبطريقة مخالفة ، من عالم صوتى قدير[4] .

وهذا ينقلنا الى **لغة حديثى الثراء** . فهؤلاء قوم ترفعهم الأموال التى انهالت عليهم فجاءة الى مستوى مادى أعلى . وهم يستطيعون أن يقلدوا الطبقة الراقية فى مجتمعهم بالتشبه بهم فى ظاهر المسكن والمأكل والملبس ، وباتخاذ ما يتخذون من أدوات الزينة ومن وسائل التنقل . . الخ ، وقد يبالغون فى ذلك مبالغة تكشف عن حقيقتهم . ولكن اذا كان اتخاذهم هذه المظاهر المادية ممكنا يسيرا ، فانهم لا يستطيعون أن

(1) Bernard Shaw : Pygmalion, Penguin ed., 1949 . . . . . .
(2) Higgins . . . . . .
(3) Eliza Doolittle . . . . . .
(4) Pygmalion, pp. 9 - 10 . . . . . .

يتحدثوا حديثهم ، أو هم لا يستطيعون أن يتحدثوا حديثهم بنفس السرعة التى يتخذون بها مسكنهم ومأكلهم وملبسهم و . . الخ . ومعروف أن محاولتهم التشبه بلهجة الطبقة الراقية الأصيلة كثيرا ما تجعل منهم مادة للهزء والسخرية .

ان وجود طرائق مختلفة من الحديث تميز طائفة من طائفة فى الجماعة التى تتكلم لغة مشتركة حقيقة معروفة ؛ وهى قائمة فى كل مجتمع ، ونحن نصنف الناس على أساس منها . ان التغييرات التى تطرأ على أية لغة مشتركة حسب المستويات الاجتماعية يسمى كل منها «**لهجة طائفية**» أو «**لهجة طبقية**»[1] .

ومن ألوان اللهجات الطائفية الموجودة فى كل مجتمع تلك التى تسمى **اللهجة السرية** » أو « **الكلام السرى** »[2] . والمقصود بها تلك اللغة التى تستعملها طائفة تخشى سلطة المجتمع ، وتهرب من عقابه ، وتحاول أن تخفى عنه أمرها ؛ وذلك كلغة اللصوص ، ولغة رجال العصابات ، ولغة الحشاشين ومن اليهم ممن يتعاطون مخدرات يحرمها مجتمعهم ، ولغة « القوادين » . . الخ . فالملاحظ أن كلا من هذه الطوائف وأشباهها تصطنع مفردات وتعبيرات لا يعرف معناها من ليس منها أو من لم يتصل بهم ويكشف عنها . والذى تلجأ اليه هذه اللغة فى الاغلب أنها تعطى بعض الكلمات المستعملة فى اللغة المشتركة دلالات جديدة، وتعتمد على الاستعمالات المجازية ؛ وقد تستعمل كلمات مأخوذة من لغات أجنبية محرفة أو غير محرفة ، وقد تخترع بعض الكلمات والتعبيرات اختراعا . وهذه التغييرات التى تلحق اللغة تغييرات عامدة . وقد لوحظ أن فى « اللهجات السرية » المختلفة فى الجماعات التى تتكلم بلغات مختلفة قسطا مشتركا من المفردات والتعبيرات ، لا سيما فى البلاد الأوروبية والأمريكية . ومن أمثلة اللهجات السرية أن بعض الحشاشين فى الاسكندرية يستعملون كلمة « سكر » بدلا من « حشيش » . وبعض اللصوص

---

(١) Class Dialect . . . . . .

(٢) Secret Language ; Underworld Speech. . . . . .

فى أمريكا يدلون على الجواهر [1] بكلمة « جليد »[2] ويدلون على الجواهر المسروقة بعبارة « الجليد الساخن »[3] .

---

(١) Jewels . . . . . .

(٢) Ice . . . . . .

(٣) Hot Ice . . . . . .

انظر فى هذا :

Margaret Shlauch : The Gift of Tongues, 3rd ed., 1949, p. 269. . .

— ٥ —

اللغة وأصحابها

(١) العلاقة بين البنيـــة اللغوية[1] والبنيـــة الاجتماعية[2]

من المسائل الهامة التى يخوض فيها علم اللغة العام مسألة بنية اللغة ومـدى تمثيلها للبنية الاجتماعية . معروف أن لكل لغة بنيتها الخاصة بها فهل هذه البنية تمثل تمثيلا صادقا البنية الاجتماعية للجماعة المتكلمة بها ، أو هل تمثل هذه البنية بدرجة معينة ؟ واذا كانت تمثلها فكيف يكون هذا التمثيل ؟ ومعروف ان أية لغة من اللغات لاتظل ثابتة بل هى فى تطور مستمر ، كما أن البنية الاجتماعية دائمة التطور ، ولكل نوع من هذين النوعين من التطور شروطه الخاصة به ؛ فهل كل تطور فى البنية الاجتماعية يقابله تطور ما فى البنية اللغوية ؟ أو بعبارة أخرى ما القوانين التى تحكم العلاقات الضرورية بين البنية اللغوية والبنية الاجتماعية ؟

كان **انطوان مييه** [3] من أوائل من وجهوا اللغويين الى الكشف عن هذه القوانين فلقد رسم فى سنة ١٩٠٦ المنهج الآتى :—

„ انه من الواجب أن نحدد مع أى بنية اجتماعية تتفق بنية لغوية معينة ، كما أنه من الواجب أن نحدد كيف تتمثل تغيرات البنية الاجتماعية ، بطريقة عامـة ، فى تغيرات فى البنية اللغوية . ”

Il faudra déterminer à quelle structure sociale répond une structure linguistique donnée et comment, d'une manière générale, les changements de structure sociale se traduisent par des changements de structure linguistique.

ولقد أتى مييه نفسه بمثال يوضح فى رأيه العلاقة بين هذين النوعين من البنية فقال : ان اللغة الهندو أوروبية كان تصريفها[4] يصطنع « عوامـل صيغة »[5] كثيرة

---

(١) Linguistic Structure
(٢) Social Structure
(٣) Antoine Meillet
(٤) Flexion
(٥) Morphémes

جدا يمثل كل منها مجموعة من الخصائص ، وكانت تعطى الكلمة استقلالا ذاتيا كبيرا فى العبارة ؛ وذلك لأنها كانت لغة عقلية متفردة ؛ وهذه الصفة ذات علاقة بالبنية الاجتماعية للأمة الهندوأوروبية التى كانت جملة جماعات صغيرة كل منهـا على درجة كبيرة من التحرر عن سائرها[1] .

أما فـ. **برونـدال** [2] فقد أقام علاقة بين وجود (الحروف)[3] وبين تقدم المدنية ؛ فقرر أن „ كل شىء يبين أن الحروف فى آسيا القديمة ، وفى افريقيا الشمالية ، وفى أوروبا كذلك ، هى أداة منطقية[4] لم تكتسب الا فى مرحلة من مراحل المدنية متقدمة نسبيا . ”[5]

وكثيرا ما نسب اللغويون وجود **الأقسـام الاسميـة** [6] الى عقلية « بدائية » ولكن الأبحاث الحديثة التى قام بها ل. هومبورجر [7] تدعو الى اعادة النظر فى هذه المسألة التى يبدو أنه قد أسىء فهم طبيعتها الحقيقية ولو فى حالة لغات الباانتو[8] على الأقل .

وفى رأى كثير من اللغويين أن من الميول العامة المرتبطة بتقدم المدنيات الميـل الى **التخلص من « المثنى »** — وهو عدد « حصى »[9] — من اللغات التى كان موجودا فيها حتى لا يقوم الا التقابل بين المفرد والجمع ، وهو تقابل ذو طبيعة أشد تجردا ؛ كما أن من هذه الميول الميل الى **تشايب زمن الفعل على هيئته** للوفاء بحاجـات المجتمعات فى تطورها[10] .

---

(١) Jean Perrot : La Linguistique, (Que sais-je ? Paris) p. 126
(٢) V. Brondal
(٣) Prépositions
(٤) Instrument Logique
(٥) المرجع السابق
(٦) Classes Nominales
(٧) L. Homburger
(٨) Les Langues Bantoues
(٩) Concret
(١٠) Jean Perrot : La Linguistique pp. 126 - 127

ان هذه الامثلة وسواها مما قدمه اللغويون اثباتا لوجود علاقة بين البنية اللغوية والبنية الاجتماعية ، قد تكون قاصرة ، أو متعسفة ، أو لم تؤد اليها مقدمات علمية يقينية ، ذلك لأن البحث فى العلاقة بين هاتين البنيتين لا يزال فى أوائله ، وهو بطبيعته محوج الى فضل استقصاء ، وزيادة احتراز ، وان النتائج المرضية التى توصل اليها قليلة قلة بالغة . وأيا ما كان فلنا أن نقول مع جان بيرو [1] :

„ من الثابت أن بنية أية لغة من اللغات ذات علاقة بعقلية المتكلمين بها ، وبنظمهم وبحضارتهم المادية . . . . . وان

جانب العناصر الموروثة فى كل حالة من حالات اللغة لجد كثير . فالتغير الكامل فى مجتمع يصطنع لغة ما لا يستلزم بالضرورة تغيرا فى بنية هذه اللغة: فالمجتمع الروسى قد قلب أيما قلب فى القرن العشرين ، ولكن اللغة الروسية احتفظت ببنيتها القديمة. ولقد أدت مناقشة قامت فى الاتحاد السوفييتى فى سنة ١٩٥٠ واشترك فيها ج. ستالين الى هذه النتيجة : ان اللغة لا يمكن اعتبارها فى مجموعها بنية عليا [2] يحددها فى مجموعها البنية السفلى [3] الاقتصادية والاجتماعية . „

(ب) اللغـــة والجنس : [4]

هل ثمة روابط ضرورية بين اللغة والجنس ؟ أى هل تتمايز اللغـات بتمـايز الأجناس ، وهل التغيرات التى تطرأ على جنس من الأجناس لا بد أن يكون لهـا أثرها فى لغته ؟ هل نستطيع أن نستخلص من درسنا للغة ما أنها لغة جماعة مستطيلى الرءوس ، ومن درسنا لغيرها بأنها لغة جماعة مستديرى الرءوس ؟ هل نستطيع الحكم بأن هذه اللغة لغة راقية طيعة قادرة على التعبير عن لطائف الفكر ودقائق الحس لأن أصحابها ناعمو الشعر ، وبأن تلك متخلفة جامدة لا طاقة لها على التعبير عن المعنويات والمجردات لأن أصحابها مجعدو الشعر ؟ هل ثمة رابطة ضرورية بين الجنس و بين القدرة على اجادة لغة بعينها ؟ أتوجد علاقة بين المميزات الجنسية و بين

---

(١) Jean Perrot : La Linguistique p. 127 . . . . . .
(٢) Superstructure . . . . . .
(٣) Infrastructure . . . . . .
(٤) انظر فندريس : اللغة (تعريب الدواخلى والقصاص) ص ٢٩٥ ــ ٢٩٨
Margaret Schlauch : The Gift of Tongues, pp. 283 - 355

قدرة الناس على التفكير ، وعلى التفكير بصورة خاصة ، وعلى التعبير عن تفكيرهم بطريقة معينة ؟

لقد أغرى بعض اللغويين بايجاد روابط بين اللغة والجنس ؛ واستغلت بعض المذاهب السياسية التعصب للجنس والزهو بلغته واتخذتهما ذريعة لفرض سلطانها على شعوب تنتمى فى رأيها الى أجناس أدنى من أجناس أصحابها ويتكلمون لغات أدنى من لغاتهم . فالعالم فردريك موللر Friedrich Müller مثلا قد أنشأ كتابـه "Grundriss der Sprachwissenchaft" [1] على أساس من هذه الفكرة، فصنف اللغات طبقا للمميزات الانثولوجية، فاستعرض لغات الشعوب المجعدة الشعر واحدة فواحدة ثم لغات الشعوب الناعمة الشعر .

ولقد نتج عن الدراسات اللغوية المقارنة ونظرية العائلات اللغوية أن رأى كثير من الغربيين لغويين ومفكرين وساسة ، أن اللغات الهندو أوروبية أسمى من سواها كالسامية والحامية ، وأن ما سموه « الجنس الهندو أوروبى » أو « الجنس الآرى » أسمى الأجناس . والحق ، كما تقول مارجريت شلاوش Margaret Schlauch أن ما لحق كلمة « آرى » Aryan من اضطراب ومن اساءة استعمال ليدعو المرء الى التردد فى استعمال الكلمة ولو فى المعنى السائغ لها وهو اللغات المنحـدرة من الايرانية القديمة Old Iranian والهندية القديمة Old Indian [2] .

لقد بر ر كثير من البرامج السياسية المستهدفة اضطهاد الأقليات وقهرها، والقضاء على العدوان الأجنبى ، على أساس أن الجماعة الحاكمة أسمى جنسا من الجماعة المغلوبة على أمرها . وقد ذهب الألمان والطليان النازيون والفاشيون دفاعا عن نظامهم السياسى الى أن اللغات الهندو أوروبية على وجه العموم ، والألمانية والايطالية على وجه الخصوص ، خير الأدوات الممكنة للفكر الانسانى، والى أن سائر اللغات جميعا يجب أن تخضع أمامها ، وأن تفسح لها الطريق . ومن ثم فقد رأوا أن من الحق ، بل من المرغوب فيه، أن تشن الحروب على أولئك الذين اتفق أنهم يتكلمون لغات سامية أو حامية أو غيرها .

---

(١) Wien, 1876 - 1888. . . . . .
(٢) The Gift of Tongues ; p. 285 . . . . . .

والحق أنه لاعلاقة ضرورية بين المميزات الجنسية كلون الشعر وتجعده، وتموجه أو نعومته ، ولون العينين وهيئتهما، ولون البشرة، وشكل الرأس والجمجمة، وطول الجسم وهيئة العظام، وماالى ذلك، وبين قدرة الناس على التفكير ، أو على تعلم لغة من اللغات ، أو بين اللغة على وجه الاطلاق . وحتى اذا غضضنا النظر عن دلالة اختلاط الأجناس فانه « لا ينبغي الخلط بين المميزات الجنسية المختلفة التي لا يمكن تحصيلها الا بالدم وبين النظم من لغة ودين وثقافة التي تعد أعيانا قابلة للنقل ، تعار وتتبادل . »[1] ان الانثروبولوجيين عندما يعثرون على جماجم آدمية ترجع الى عشرات الآلاف من السنين لا يستطيعون الا القول بأن أصحاب تلك الجماجم كانوا مستطيلي الرءوس[2] أو بأنهم كانوا مستديري الرءوس[3] وهم لا يستطيعون القول بأنهم كانوا يتكلمون — دون شك — لغة اعرابية متطرفة في اعرابها . ومن الأدلة التربية الحاكمة بفساد هذا الربط بين اللغة والجنس أن من اللغات ما يستفيض حتى يكون لغات جماعات تنتمي الى أجناس مختلفة ، وهذه الجماعات — على اختلافها في الجنس تجيدها ولا تأنس مشقة في تعلمها ، وذلك شأن الانجليزية والعربية مثلا . فمن الفتوح والهجرات ما نشر لغات الفاتحين والمهاجرين بين شعوب لا تربطهم بالمتكلمين الأصليين روابط بيولوجية . والزنجي الافريقي الذي يربى منذ طفولته الباكرة في انجلترا في ظروف واحدة مع الأطفال الانجليز يتكلم الانجليزية كما يتكلمها أبناؤها ، واذا ربي طفل انجليزي في قبيلة زنجية افريقية كما يربى أبناؤها تكلم لغتهم تكلمهم اياها ، وما درى صوتا أو كلمة من الانجليزية ما لم يتح له تعلمها كما يتعلمها أي أجنبي منها .

(ج) اللغات المتخلفة : [4]

الحديث عن اللغة والجنس من الحديث عن « اللغات المتخلفة » بسبيل . فمن

---

(١) فندريس : اللغة (تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص) ص ٢٩٨ عن هويتني

D. Whitney : La vie du Langage, P. 231 (trad. de l'anglais), 3 è édit., Paris 1880

(٢) Dolichocephalic (= long - headed) . . . . . .

(٣) Brachycephalic (= round - headed) . . . . . .

(٤) انظر Margaret Schlauch : The Gift of Tongues, pp. 285 - 287. . . . .

اللغويين من يصف بعض اللغات بالقصور في هذا الجانب أو ذاك ، ولهذا السبب أو لسواه ، عن الوفاء بحاجات المدنية الحديثة ، وعن المشاركة في أحداث العصر واتجاهاته وروحه ، وعن استيعاب العلم والفلسفة والفن . ومنهم من لا يقنع بهذا بل يتطرف فيرى أن أمثال هذه اللغات لن يقدر لها ، بطبيعة بنيتها ، أن تسمو الى رتبة اللغات « الراقية » فتصلح لما تصلح له . نعم ان من المسلم به أن بعض اللغات في اباننا هذه بعيدة عن التيارات الكبرى للأحداث ، وأقل قدرة من سواها على مجاراة مدنية العصر القائمة على الصناعة والآلات : فقد تستعمل هذه اللغات مفردات لا توائم حاجات العصر وروحه ؛ أو قد لا يكون فيها أسماء عامة بسيطة مثل « شجرة » أو « منزل » أو « خشب » ، هذه الأسماء العامة التي لا يتأتى بدونها تصور الشجرة العامة المجردة وما اليها ؛ وقد يكون نظم syntax هذه اللغات فارط التدقيق بحيث لا يحتاج الى هذا التدقيق ؛ وقد تستعمل تركيبات معقدة ومكررة ومعوقة للتعبير عن علاقة بسيطة ؛ ومن المسلم به أن النظم قد يؤدي الى صورة خاصة في التفكير وقد يؤثر في طرق الاستدلال[1] .

ولكن القول بوجود لغات متخلفة شيء والقول بأن هذه اللغات لن يتاح لها أن تعبر عما قد تعبر عنه اللغات الراقية شيء آخر . فهذه اللغات على هذه الصفة لأنها مرت بظروف تاريخية خاصة ، ولكنها في الوقت نفسه ليست ثابتة static فهي كأية لغة متحركة dynamic متطورة ، انها متغيرة والتغير الذي يصيبها دائم الحدوث وان اختلف سرعة وطبيعة وعمقا وفق ما يصيب الجماعة المتكلمة بها من التغيرات الحضارية . ان ما ينقص هذه اللغات من مفردات من أيسر ما يمكن اضافته ؛ ونظمها المعقد قد يبسط ؛ وبنية جملها قد تتغير مع مرور الأيام ؛ وما

= وفندريس : اللغة ص ٢٩٨ — ٣٠٢

(١) « ان اللغة تستطيع في بعض الأحيان أن تعدل من العقلية ونظمها ؛ فعادة وضع الفعل في مكان بعينه دائما ، يمكن ان تؤدي الى صورة خاصة في التفكير وأن يكون لها أثر في طرق الاستدلال . والتفكير الفرنسي أو الألماني او الانجليزي خاضع للغة الى حد ما . فان اللغة اذا كانت مرنة خفيفة مقتصرة على الحد الأدنى من القواعد النحوية ، سمحت للفكرة بالظهور في وضوح تام واتاحت لها حرية الحركة . وعلى العكس من ذلك تخنق الفكرة من التضييق الذي يصيبها من لغة جامدة ثقيلة . ولكن عقلية المتكلمين تتصرف لتعتاد اي شكل من أشكال اللغة . » (فندريس : اللغة ص ٣٠٢)

فى هذه اللغات من تمييزات كثيرة لا طائل من ورائها قد تطرح عند ما تنقطع الحاجة اليها ؛ والعجز عن التعبير عن المجردات يمكن التغلب عليه . ان اللغات « المتخلفة » قادرة ، عندما تواتيها الظروف المناسبة ، على التكيف السريع ، مصطنعة ما فى مواردها نفسها من امكانيات ، لتفى بحاجات المدنية الحديثة ، ولتنهض الى تجريدات الفلسفة الأوروبية المعاصرة . ويحكى فرانز بواس Franz Boas ان الطلبة الهنود الأمريكيين أمكن تعريفهم بالمثل العليا الأفلاطونية ولو أن لغتهم خالية من الأسماء العامة التى تستعمل دون «مغيّر»؛ فقد كان من اليسير تعليمهم أن يعزلوا كلمة « بيت » من تعبيرات تعنى « ذلك البيت هناك » ، أو « بيتى القائم هنا » و « البيت المصنوع من الخشب » ؛ وما من شك فى أن هذا شاق عليهم اذ تعودوا على أن يكون لكل اسم « مغيّر » modifier ، ولكنهم عندما عُوِّدوا على أن يحسوا بالحاجة العقلية الى الاسم « بيت » المجرد من المغير فقد قبلوا الاستعمال ، وساعدوا بهذا على دفع لغتهم الى الأمام .

(٤) اللغة والقومية

ان الوظيفة التى تؤديها اللغة فيما يتعلق بالقومية وظيفة على جانب كبير من الأهمية . فكل أمة تعتز بلغتها ، وتريد لها الحياة ؛ وتبدو أهمية هذه الوظيفة فى ألوان من الصراع الذى ينشب بين الأمم . فبعض الأمم المستعمرة تفرض على الأمم المحتلة أن تكون لغاتها — أى لغات الغاصبين — هى لغة التعليم فى المدارس وهى اللغة الرسمية فى المخاطبات الحكومية وفى المحاكم وفى سائر الأمور الرسمية . ومن أبرز الأمثلة على هذا فرض الايطالية فى ليبيا ، والفرنسية فى تونس ، والانجليزية الى حد ما فى مصر ، ولكن يلاحظ أن هذه الأمم تحتفظ بلغتها القومية فى البيوت ، ومن أفرادها من يعمل على تعليم صغاره اللغة القومية سرا كما كان الحال فى ليبيا أثناء الاستعمار الايطالى . ومن الأمثلة الرائعة على هذا احتفاظ البولنديين بلغتهم البولندية لغة قومية بينما كانت بلادهم مقسمة على ثلاث امبراطوريات فى القرن الثامن عشر . وعندما تثور الأمم المحتلة التى فرض عليها المستعمرون لغاتها مطالبة بالاستقلال السياسى يكون من أهم ما تطالب به استعمال لغاتها هى فى الأمور الرسمية وفى التعليم . ان العلاقة بين اللغة وبين اعتزاز الجماعة بقوميتها وتثبيت

هذه القومية واحيائها علاقة خطيرة الشأن ، حتى أنه لمن الممكن بعث لغة طال موتها ، فاسرائيل فى العصر الحاضر قد رأت أن من عوامل تجميع اليهود مختلفى الألسنة بعث اللغة العبرية .

ومن مظاهر اعتزاز الأمم بلغاتها القومية أن بعضها قد تتطرف وطنيته أحيانا فيتخذ مواقف عدائية نحو ما فى لغتها من كلمات دخيلة ، وقد تشتد هذه المواقف العدائية اذا نشب صراع بينها وبين أصحاب الكلم الدخيل سواء اتخذ هذا الصراع شكل الحرب ، أو التنافس الاقتصادى أو غير ذلك . وهذه المواقف العدائية تجاه الدخيل قد لا تقتصر على كرهه ، أو محاولة التقليل من استعماله ، بل لقد يمتد الى التطهير الواعى للغة القومية منه . ومن أبرز الأمثلة على هذا ما حدث فى اللغة الألمانية فى القرن العشرين ؛ فعند ما أثبتت الامبراطورية الألمانية دورها فى الشئون الدولية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حدث تطهير منظم لكلمات فرنسية دخيلة كان الزمان قد طال على قبول الألمانية لها ، فحلت كلمة Spielhaus الألمانية محل كلمة Theater و Fernsprecher محل كلمة Telephon و Fahrkarte محل Billet وكلمة Abort محل Toilette الى غير ذلك من الكلمات . [1]

وربما كان الاعتزاز بالعربية التى «وسعت كتاب الله» هو الذى دفع كثيرا من المصريين أفرادا وهيئات فى أوائل القرن العشرين خاصة ، الى النفور من كثير من الدخيل الأوروبى ، والى وضع كلمات عربية تحل محلها قدر لبعضها أن يدور على الألسنة والأقلام ، وقدر لبعضها أن يموت .

ولكن من الأمم ما لا تتخذ هذا الموقف العدائى نحو ما فى لغتها من دخيل لأسباب خاصة بها ؛ وأقرب مثال على ذلك المتكلمون بالانجليزية . وذلك لأن اللغة الانجليزية بطبيعة تكونها وتطورها كثيرة الكلمات الدخيلة المستعارة من لغات كثيرة مختلفة قديمة ووسيطة وحديثة ، فاحساس المتكلمين بها نحو الاضافات الكثيرة التى تضاف اليها عن طريق الأخذ المباشر من لغات أخرى لا يعدو الغضب الرفيق .

---

(١) انظر Margaret Schlauch : The Gift of Tongues ; pp. 282-283

— ٦ —

اللغـــة والحيـــاة السياسيـــة

ان استعمال اللغة فى جوانب النشاط السياسى المختلفة ـ والسياسة وجه من وجوه الحياة الاجتماعية ـ محوج الى فصل دراسة من كلتا الناحيتين الوصفية والتاريخية . ودراسة هذه الوظيفة من وظائف الكلام من شأنها أن توقفنا على حقائق عن اللغة لا تظهرها سواها من الوظائف ، أو هى لا تظهرها بنفس القوة والوضوح .

(١) ومن عناصر دراسة لغة السياسة ، دراسة **المصطلحات والتعبيرات التى يصطنعها كل نظام من الانظمة السياسيـــة** المختلفة دعاية لنفسه ، وتثبيتا لحكمه ، وفى تعامله مع نظام آخر يخالفه . فوسائل الاقناع الكلامية مثلا تختلف فى النظام الفاشستى الهتلرى أو الموسولينى عنها فى نظام ديمقراطى ؛ وهى تختلف فى هؤلاء جميعـا عنها فى النظام الشيوعى الروسى بوجه عام ؛ كما أنها فى النظام الاخير تختلف بعض الشىء زمن لينين عنها زمن ستالين وعنها بعد ستالين . ولكن هذه الوسائل ، على اختلافها باختلاف الانظمة السياسية ، وعقليات الشعوب ، والوضع الحضارى للأمة التى يوجه اليها الكلام ، وبغير ذلك ، قـد تشترك فى طائفـة من السـمات العامة .

(٢) ومن ذلك دراسة **لغـة الانتخاب** : فتدرس اللغـة المستعملة فى الحمـلات الانتخابية تحريضا على انتخاب مرشح وتنفيرا من انتخاب سواه ، مع بيان اختلافها باختلاف طبقة الناخبين والمرشحين ؛ واللغة المتصلة بالتقسيم الادارى للـدوائر الانتخابية ، وباعطاء الأصوات و « فرزها » واعلان نتيجة الانتخاب ؛ ولغة القوانين التى تصدرها الدولة فيما يتعلق بهذا الموضوع ؛ ولغة الصحف والمجلات والاذاعة فى هذا الشأن ؛ وتعليقات الجماهير على كل أولئك ، وما سوى ذلك من جوانب استعمال الكلام الانتخابى . كل هذا يدرس وصفيا وتاريخيا فى اللغة الواحدة . ولو درس فى العربية المستعملة فى مصر منذ أول عهدها بالحياة الانتخابية حتى أيامنـا لاتضح لنا كيف ماتت كلمات ، وحيّت أخرى ، وتبدلت دلالات ثالثة ، ولظهر لنا كيف تغيرت وسائل الاقناع تمشيا مع ازدياد الوعى الانتخابى للجمهور المصرى نتيجة لما خاضه من تجارب ، ولتقدمه الحضارى بوجه عام .

(٣) ودراسة **لغة المراسيم** التى يصدرها رئيس الدولة فى الشئون السياسية ، كتكليف وزارة بالحكم ، أو اقالة وزارة ، أو افتتاح البرلمان أو تأجيله أو تعطيله على جانب من الاهمية . ولو نظرنا مثلا فى لغة مرسوم اقالة وزارة مصطفى النحاس (باشا) من الحكم سنـة ١٩٣٧ ، وفى لغة مرسـوم تكليـف الـوزارة التى وليتـه فى الحكم ، ثم فى لغة مرسوم تكليف مصطفى النحاس بالحكم مرة أخرى بعد ذلك ، وربطنا كل ذلك بظروفه لظهر لنا كثير من الحقائق عن الوظيفة التى يمكـن أن تؤديها اللغة . كما أن دراسة لغة « خطب العرش » تظهر لونا من ألوان استعمال اللغة فى الميدان السياسى .

(٤) وتحليل **المفردات والتعبيرات المستعملة فى الحروب** تمهيدا لها ، وأثناءها ، وبعَيْدها من شأنه أن يقدم لنا معلومات كثيرة عن حقيقة اللغة ووظيفتها . فى الحرب العالمية الثانية اتخذت كلمة « الديمقراطية » لونا جديدا ، وتغيرت دلالة « الحلفاء » فبينما كانت تتضمن فى نظر «الغربيين» بغضا للروس لأنهم لم يكونوا «حلفاء» من قبل ، أصبحت أثناء الحرب الثانية تعنى ـ من جملة ما تعنيه ـ مشاركة الروس فى التخلص من عدو مشترك . كما أن عبارتى « العالم الحر » و « الأمم الحرة » كانتا أثناء الحرب تدلان على جملة الشعوب المعادية لألمانيا واليابان وايطاليا ولكن بعـد أن اشتدت « حرب الأعصاب » بين « الكتلة الشرقية » و« الكتلة الغربية » بعـد انتهاء الحرب أخذت هاتان العبارتان تنطويان على المعاداة للكتلة الشرقية . كمـا أن الكلمات الانجليزية المقابلة لـ « العرق ، والدم والدموع » التى وردت فى خطاب لونستون تشرشل ، أثناء الحرب ترمز عند الانجليز وعند كثير من حلفائهـم الى وجوب موالاة الجهود ، والدأب ، والصبر ، والتماسك لاحراز النصر .

(٥) وتذكر لغة الحرب بلغة « السلام » والدعوة اليه ، والتحذير من الانسياق الى الحرب .

(٦) وان تحليل **«التعبيرات الدلالية»[1] التى تصـحب الثورات والانقلابات** لأمر على جانب كبير من الأهمية والطرافة . فالحركات الثورية ، كالثورة الفرنسية ، والثورة الشيوعية ، والثورة المصرية سنة ١٩١٩ تنعكس فى اللغة قيمها ومعنوياتها والدفع الذى

---

(1) Semantic Shifts . . . . . .

تحدثه . ويبرز ذلك ، أظهر ما يبرز ، فى أنها تميت كثيرا من الكلم اذ تميت أو تريد أن تميت كثيرا من التقاليد والأفكار والعادات ؛ وفى أنها تحيى وتخلق كثيرا من الكلم اذ كانت بطبيعتها الثورية تحيى وتخلق وتريد ان تحيى وتخلق كثيرا من القيم وطرق الحياة وفهمها ؛ وفى انها تغير دلالات كثير من الكلم اذ كانت بطبيعتها ملحقة التغيير فى كلا الميدانين الروحى والمادى .

ولو درسنا **أثر التاريخ الثورى لمصر الحديثة فى اللغة لاتضحت لنا حقائق كثيرة** فالثورة العرابية التى كانت تتضمن ، فى جملة ما تتضمنه ، احياء القومية المصرية أضافت الى كثير من الكلمات معانى الهزء والسخرية ، والى غيرها كـ « مصر » و « المصرى » و « الفلاح » و « الفلاحون » معانى الاعتزاز والفخار .

اما **ثورة** سنة ١٩١٩ فمن العبارات التى تذكر بها « الهلال مع الصليب » رمزا الى الأخوة والتماسك بين المصريين مسلمين وأقباطا ، ودعوة الى احباط التدخل الأجنبى للتفريق بينهما ؛ ومن ذلك اشارة المسلمين الى الأقباط بقولهم « اخواننا الأقباط » . ومما يلاحظ أن كثيرا من مواليد بعد الثورة قد سموا بـ « سعد زغلول » أو « سعد » وبـ « صفية » « أم المصريين » . وما من شك فى أن لغة الأغانى والأناشيد المصرية قد غيرها تغييرا كبيرا ثورة سنة ١٩١٩ ؛ وربما ساغ لنا القول بأن النشأة الحقيقية للأناشيد المصرية الوطنية مرتبطة بثورة ١٩١٩ . وقد غيرت هذه الثورة من أسلوب الصحافة خاصة ومن أسلوب التعبير الكتابى والكلامى عامة ، فأخذ يخلص من كثير من الزخرف والزينة والقيود التى لا طائل من ورائها ، ويسلس ويستقيم ، فان ما أحدثته الثورة من تنشيط وتحريك ، وما رفعته عن الناس من خمول ، وما ألجأت اليه من سرعة فى الفعل قد انعكس صداه فى اللغة . وان ما بين أيدينا من حقائق عن ثورة سنة ١٩١٩ يدل على أن أثرها فى العاميات العربية وفى العربية الفصحى فى مصر وفى سائر الأقطار العربية أثر خطير ينتظر من يكشف عنه فى تفصيله وجملته ، ومن يقومه التقويم الصحيح .

واما **ثورة الجيش المصرى سنة ١٩٥٢** فلها كذلك ، شأن كل ثورة ، آثارها فى اللغة . فما أحدثته هذه الثورة من **الغاء الألقاب** قد حكم بالموت على كثير من الكلمات والعبارات من لغة الكتابة بوجه خاص . فلم تعد تستعمل ، بالنسبة الى

المصريين ، كلمات مثل « حضرة » و « أفندى » و « بك » و « باشا » ، و « صاحب العزة » و « صاحب السعادة » و « صاحب المعالى » و « صاحب الرفعة » و « صاحبة العصمة » و « البرنس » و « الأمير » و « الأميرة » و « سمو الأمير » و « سمو الأميرة » ، و « الملك » و « صاحب الجلالة » و « وجلالة الملك » و « الذات الملكية » و « الملكة » و « صاحبة الجلالة . . . » و « الملكة الوالدة . . . » الخ كما لم تعد تستعمل تصرفات كثير من هذه الكلمات والعبارات فى التأنيث والتثنية والخطاب والاشارة . وما من شك فى أن كثيرا من هذه الألقاب قد استمر فى لغة الأحاديث الخاصة بين طوائف من الناس ، فكثير من الأحياء من أصحاب هذه الألقاب ظلوا يخاطبون بألقابهم وبما يتصل بها من صفات ، اما لاصرارهم على أن يخاطبهم أتباعهم والمحافظون لهم بهذه الألقاب ، واما تأدبا من المتكلمين خشية أن يشعروهم بأن منزلتهم قد عراها النقصان ، واما لهذين معا ، أو لغير ذلك من الأسباب . والروايات كثيرة على غضب كثير من حملة هذه الألقاب أو امتيائهم — فى أوائل العهد بالغاء الألقاب خاصة — عندما يخاطبون مجردين من ألقابهم . وقد كان يحدث ، أول الأمر ، عندما تحوج الاشارة فى الكتابة الى أحد من حملة الألقاب أن يوضع اللقب بين قوسين ، أو أن يردف اللقب بكلمة « السابق » أو « السابقة » أو « سابقا » ، ثم أخذ الناس يكتفون بذكر الاسم مجردا عن اللقب فى الأغلب . ولكن ثورة الجيش ، وقد ألغت الألقاب المشعرة بالفوارق الطبقية الكبيرة ، أوجدت لقبا جديدا هو « السيد » (ومؤنثه « السيدة ») يطلق على المواطنين المصريين كافة ، وبهذا أعطت هذا اللقب دلالة جديدة لم تكن له . وهذا اللقب فى العربية فى مصر يختلف عن Mister فى الانجليزية ، و Monsieur فى الفرنسية و Her فى الألمانية فهذه الألقاب تطلق على السواد الأعظم من الانجليز والفرنسيين والألمان أولئك الذين لا يحملون ألقابا مثل Sir و Lord و . . . الخ . وباستعمال « السيد » بهذا المعنى استصلت معه عبارات مثل « سيادتكم » و « سيادة » فلان ، و « سيادته » عند الخطاب والاشارة .[1]

---

(١) تظهر دراسة لقب « السيد » وتصرفاته فى العربية دراسة تاريخية أن هذا اللقب ذو تاريخ طويل متطور ، اصطنعه العرب فى جاهليتهم واسلامهم واستعملته الأمم التى اتخذت العربية بعد اسلامها ، وبعض الأمم الاسلامية الناطقة بغير العربية ، وهو =

= لا يزال قائما فى ايامنا، واعطى فى مصر دلالة جديدة بعد ثورة الجيش سنة ١٩٥٢؛ وقد انتقل هذا اللقب من العربية الى بعض اللغات الاوروبية . وقد استعمل مؤنثة «السيدة» لقبا ، كما استعمل مثناه وجمعه مذكرين ومؤنثين « السيدان ـ السيدتان ـ السادة السيدات » .

ورد هذا اللقب فى الشعر والنثر وفى القرآن الكريم (والقرآن نفسه قد لقبه أبو اسحق الزجاج بـ « سيد الكلام » ؛ انظر لسان العرب مادة « سود ») وفى الحديث الشريف ، ولم يكن قاصرا على الفصحى . وتتبع استعمالات هذا اللقب فى العصور المختلفة يظهر أنه لم يكن فى عصر من العصور ذا دلالة واحدة بل هو فى العصر الواحد يدل على اكثر من معنى ؛ ولكن استعمالاته جميعا ينتظمها معنى التعظيم والتشريف والتفضيل والتبجيل ؛ وقد تكون الفضيلة التى يطلق بسببها هذا اللقب سموا فى الخلق أو براعة فى العقل ، أو شرفا فى النسب ، أو كمالا فى الجسم ، أو امتلاكا لغير هذا من أسباب السلطان والبروز . ولما كانت هذه المعانى هى الاساس فى اطلاقه اتضح انه يتأتى اطلاقه على كثير من القوى ؛ وعلى كثير من الاشخاص والحيوان والاشياء ؛ وهذا الذى كان .

كان «السيد» يطلق فى الجاهلية على «الملك» رئيس القوم ، سواء كان رئيس قبيلة او رئيس عشيرة أو ادنى من ذلك ، وعلى من يقدمه القوم على انفسهم ، وعلى من يتكلم باسمهم فى أمر من الأمور ، (قال زهير بن ابى سلمى فى معلقته مخاطبا هرم بن سنان والحارث بن عوف :ـ

يمينا لنعم السيدان وجدتما ... على كل حال من سحيل ومبرم

وقالت الخنساء عن أخيها صخر :

السيد الحجاج وابـ ... ـن السادة الشم الجحاجح)

وكان يطلق على غير رئيس القوم ان برزت فيه صفة يعلى مجتمعه من شانها كالشجاعة الفارطة ، وكالحلم البالغ ، واحتمال اذى الناس ، والاغراق فى السخاء ، ورجاحة العقل ، والتفوق فى المال . كما كان يطلق على كبير السن .

وممن أطلق عليه لقب السيد فى الجاهلية مولى العبد أى صاحبه لأنه مالكه ، واستمر استعمال السيد فى هذا المعنى طوال نظام الرق .

ويبين ما أثر من النصوص الجاهلية ان زوج المراة كان يلقب بسيدها (وجاء فى القرآن قوله تعالى « وألفيا سيدها لدى الباب » أى بعلها) .

وكما كان « السيد » يطلق على الشريف والوفيع والمالك من الاشخاص فلقد كان يطلق من قديم على « المسن » من المعز (قال الشاعر :

سواء عليه شاة عام دنت له ... ليذبحها للضيف أم شاة سيد

ومنه الحديث : ثنيٌ من الضأن خير من السيد من المعز) . =

= وكان الحمار الوحشى يسمى سيد انثاه ، وأطلق « السيد » على رئيس الجن :

جنٌ هتفن بليل ... يندبن سيّدهنّه

وفى القرآن الكريم استعمل السيد بمعنى الزوج (وألفيا سيدها لدى الباب) ، وسمى الله تعالى يحيى سيدا وحصورا أى أنه فاق غيره عفة ونزاهة عن الذنوب او بمعنى الرئيس والامام فى الخير ، أو لغير ذلك من أسباب التقديم .

وفى الحديث الشريف أن النبى (صلعم) سمى الله ـ تبارك وتعالى ـ «السيد» (جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال . «أنت سيد قريش ؟ »، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: «السيد الله»، فقال: «أنت أفضلها قولا وأعظمها فيها طَوْلا»، فقال النبى (صلعم) «ليقل احدكم بقوله ولا يَسْتَجْرِينّكم») . وصفة الله جل ذكره بالسيد معناه الله انه مالك الخلق والخلق كلهم عبيده . ونحسب أن وصف الله و «الرب» والمعبود بالسيد أقدم من هذا . وهذا القول من الرسول تواضع وكراهة أن يمدح فى وجهه ؛ ولا شك أن الرسول (صلعم) كان يفضل ان يلقب بنبى الله ورسوله لا « بالسيد » هذا الذى كان يسمى به العرب رؤساءهم ، كما ورد فى بعض الأحاديث (فى لسان العرب مادة « سود » : وقيل فى معنى قوله لهم لما قالوا له انت سيدنا وقال قولوا بقولكم ؛ أى ادعونى نبيا ورسولا كما سماني الله ولا تسمونى سيدا كما تسمون رؤساءكم فانى لست كأحدهم من يسودكم فى أسباب الدنيا) .

وقد روى عن الرسول (صلعم) استعمال السيد فى بعض ما كانت تستعمله فيه العرب فقد روى أنه قال للأنصار « قوموا الى سيدكم » يقصد سعد بن معاذ ، وأنه سأل الأنصار مرة « من سيدكم » قالوا «الجد بن قيس على أنا نبخّله» قال: وأى داء أدوى من البخل ؟ » . وروى عن الرسول قوله : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » . ولما كان السيد فى الجاهلية لقبا يرفع من أشخاص ويضع من آخرين ، ولما كان الاسلام يدعو الى التسوية ، ويهدف الى القضاء على الغرقة فقد روى عن محمد (صلعم) أنه قال : « كل بنى آدم سيد : فالرجل سيد أهل بيته ، والمراة سيدة اهل بيتها . » وقال الرسول للحسن بن على : « ان ابنى هذا سيد وان الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » . كما سمى الرسول على بن ابى طالب « سيد العرب » و « سيد المسلمين » ، ولقب الحسين بن على بأنه « سيد شباب أهل الجنة » ولقبه هو والحسن بأنهما « سيدا شباب أهل الجنة » وقال الرسول عن فاطمة الزهراء انها « سيدة نساء أمتى » أو « سيدة نساء هذه الأمة » أو «سيدة نساء العالمين» و «سيدة نساء أهل الجنة » . وهذه الأحاديث فى على وزوجته وولديه قد يميل بعض الباحثين الى الظن بأنها من صنعة الشيعة فى عصر متأخر .

كان الصحابة يخاطبون الرسول أحيانا بـ «سيدنا» ويشيرون اليه بـ «سيدى» ، وفى حديث عائشة أن امراة سألتها عن الخضاب فقالت : كان سيدى رسول الله (صلعم) يكره ريحه ؛ وهذا اللقب قد ينصرف هنا الى معنى السيادة تعظيما للرسول أو الى =

= ملك الزوجية ؛ وقد اطلق هذا اللقب على بعض كبار الصحابة ومن ذلك حديث أم الدرداء « حدثني سيدى أبو الدرداء » و « سيدى » هنا يصدق عليها ما يصدق على « سيدى » فى النص السابق. وقد رأينا فى الأحاديث النبوية السابقة أن من الصحابيات اللائى سمين بـ « سيدة » فاطمة الزهراء .

وفى **الشعر العباسى** امثلة تشهد باستعمال « سيدتى » و « سيدى » خطابا للمحبوب . قال أبو العتاهية :

الا ما لسيدتى مالها أدلا فأحمل ادلالها ؟

وقال البحترى :

سيدى انت ما تعرضت ظلما فأجازى به ولا خنت عهدا

ومن اشهر الاستعمالات الاسلامية للسيد وللسيدة ، وتصرفاتهما فى التثنية والجمع ؛ اطلاقها على العلويين والطالبين . وقد ظهر هذا الاستعمال بشكل مستفيض ابان اضمحلال الدولة العباسية ؛ وهو فى هذا شبيه بلقب « الشريف » . والارجح ان هذا الاستعمال السيد ومتصرفاته كان متأثرا بالأحاديث النبوية التى تلقب كلا من على ابن أبى طالب والحسن والحسين بالسيد، والتى تلقب فاطمة بالسيدة؛ ان صحت هذه الأحاديث ؛ وقد أوردنا بعضها فيما تقدم. كان العلوى أو الطالبى — ولا يزال يلقب «السيد» أو «السيد الشريف» أو «الشريف السيد». أحالت مادة Sharif فى دائرة المعارف الاسلامية فى وصف افراد من العلويين بلقب سيد على كتاب « عمدة الطالب فى أنساب على بن أبى طالب » لابن مهنى طبعة بومباى ١٣١٨هـ ص ٥١ سطر ١٦ ؛ ص ٥٢ س ٢ ، ص ٥٤ س ١٠ ، ص ٥٩ س ٢ ، ٦ ، ٩ ، ١٦ ؛ ص ٦٥ س ١٥ ؛ ١٧ ص ١١٧ ، ص ١٤٢ س ٧ ؛ ص ١٤٩ س ٩ ؛ وعلى « تاريخ الاسلام » للذهبى مخطوط فى ليدن 1721 الذى يضيف هذا اللقب الى الامام الثانى عشر على بن محمد f. 85 a . واحالت هذه المادة نفسها فى استعمال اللقبين « السيد الشريف » و « الشريف السيد » على نهاية الأرب للنويرى ط. القاهرة ١٣٤٢هـ، حـ ٢ ص ٢٧٧ سطر ١٢ ؛ وعلى « العقود اللؤلؤية » للخزرجى Gibb. Mem. Ser. ١٩١٣م، حـ ٢ ص ٣١٤).

وقد أطلقت « السيد » كذلك على **الصوفى ، والولى ، والجليل من الفقهاء** وأطلق جمعها « السادة » أو « السادات » على الجماعة من كل هؤلاء ، ومن ذلك « السادة الصوفية » ، و « السادات الأولياء » (انظر الشرجى : طبقات الخواص ، القاهرة ١٣٢١هـ ص ٢ س ٩ ، ص ٣ س ١ ؛ ص ١٩٥ س ٣ — عن دائرة المعارف الاسلامية مادة Sharif و « السادة الأعلام » (ابن حجر الهيتمى : الفتاوى الحديثة ص ١٢٤ س ٤ — عن دائرة المعارف الاسلامية مادة Sharif)

وتستعمل « السيد » لقبا فى **بعض البلاد الاسلامية التى لا تتكلم العربية** كايران وتركيا والهند والملايو . =

وبالاضافة الى « سيد » يستعمل فى فارس لقب « مير » (من « أمير ») وكان هذا اللقب شائعا فى تركيا والهند كذلك . أما فى مناطق من الملايو فيستعمل بالاضافة الى « سيد » لقب « حبيب » (بمعنى « محب » أى للنبى أو بمعنى « محبوب » اى أى محبوب منه) وهذا اللقب يستعمل كذلك فى مناطق من بلاد العرب .

أما « سيدى » ؛ وبالعامية « **سيدى** » فهو الآن شائع الاطلاق فى البلاد العربية والاسلامية المختلفة على الأولياء والأخيار (ومن ذلك فى الاسكندرية : سيدى جابر — سيدى ياقوت العرشى — سيدى أبو العباس . وسمعت فى بنغازى سيدى عبدالسلام — سيدى خليفة سيدى غريب . . الخ) ومن الواجب تتبع استعماله فى هذا المعنى من الناحية التاريخية . ومن الملاحظ ان « سيدى » بهذا المعنى كثير الورود فى كتاب ,, لواقح الانوار فى طبقات الأخيار ،، الشعرانى ، ط. القاهرة ١٣١٥هـ.

ومن استعمالات « سيدى » الحالية فى بعض البلاد العربية اطلاقه على الرؤساء تعظيما واحتراما ؛ واكثر من هذا شيوعا اطلاقه على كبير السن والمقام . وفى كثير من البلاد العربية يخاطب رب الاسرة لا سيما من يقومون على خدمته ، وزوجته كذلك فى بعض البلاد وفى بعض الأوساط بـ « سيدى » ؛ كما يشار اليه بنفس اللقب ، بينما تخاطب ربة الاسرة ويتحدث عنها ، من خدمها وممن يقل عنها شانا بـ « ستى » . وقد ذكر لى استاذى الدكتور طه الحاجرى انه فى ريف بنى سويف من صعيد مصر لا يخاطب الخادم « سيده » بـ « سيدى » بل يخاطبه بـ « يا عمى » ، أما العم الحقيقى اخو الأب فيخاطب ويتحدث عنه بـ « أبويا » فـ « أبويا على » معناها عمى على .

وفى مصر تستعمل « سيد » مضافة الى الضمائر المناسبة فى الأكثر بمعنى الجد (أبى الأب أو أبى الأم) ويقابل هذا فى المؤنث « ست » مضافة الى الضمائر المناسبة بمعنى الجدة (أم الاب ، أو أم الأم) وسمعت فى بنغازى « سيدى » بمعنى عمى أخى أبى .

وفى كثير من البلاد العربية يخاطب السائلون من يرجون «حسنتهم» بـ «يا سيدى» (ومن ذلك فى مصر : « حسنة يا سيدى » و «شىء لله يا سيدى») ان كان المسئول رجلا و «يا ستى» ان كان امرأة .

وتستعمل فى مصر عبارة « **سيدى يا سيدى** » فى أحوال خاصة كالتعريض بحسناء مختالة مزهوة .

ويستعمل فى معظم البلاد العربية مختصر لـ « سيدى » هو « سى » ، ومما هو جدير بالملاحظة أن « سى » فى مصر له حالات من الاستعمال ؛ ولا يجوز ان يحل محل « سيدى » فى بعض الحالات ؛ فلا يقال « سى ياقوت العرشى » ولا يخاطب الخادم رب الأسرة أو يتحدث عنه، وخاصة اذا كان رب الأسرة كبير السن بـ «سى أحمد» مثلا؛ وأكثر ما يستعمل فيه هذا اللقب احترام **الشباب** خاصة ؛ وقد تتحدث الأم نفسها عن =

. . . . . .

= اينها الشاب بـ « سي فتحي » وقد تخاطبه بهذا اللقب .

أما «سَيِّدُنا» (و «سَيِّدُنا» في العامية) فلا يزال كثير الاطلاق على الرسول (صلعم) وعلى الصحابة (سيدنا محمد ـ سيدنا أبو بكر ـ سيدنا عمر ـ سيدنا عثمان ـ سيدنا علي) وعلى الأنبياء والرسل والملائكة (سيدنا نوح ـ سيدنا يوسف ـ سيدنا موسى ـ سيدنا جبريل) . وقد لاحظنا أن اطلاق سيدنا على هؤلاء قديم . وفضلا عن هذا الاستعمال فان « سيدنا » تطلق في ريف مصر على معلم الصبية في الكتاب . و «سِتّنا» وهي مختصرة من « سيدتنا » ، تطلق في مصر على أمثال « خديجة » زوج الرسول ، وعلى أمثال « زينب » و « عائشة » و « نفيسة » ؛ ولكن لا يجوز أن تلقب احدى هؤلاء بـ « ستي » فلا يقال « ستي زينب » الخ .

وقد شاع في العصر الحديث في كثير من البلاد العربية التمييز بين المتزوجة والبكر ـ لا سيما في لغة الكتابة ـ بتلقيب الاولى « **السيدة** » وبتلقيب الثانية « **الآنسة** » ، وقد ذكرنا أن تسمية الزوجة بـ « السيدة » تسمية جد قديمة ترجع الى العصر الجاهلي.

أما **ستّ** » (مختصر سيدة) و « **ستي** » (مختصر « سيدتي ») و « **ستنا** » (مختصر « سيدتنا ») فهي كثيرة الاستعمال في كل البلاد العربية ، وقد أشرنا الى بعض استعمالاتها . ويبدو أنها ـ أو «ستي» على الأقل ـ قديمة الاستعمال ؛ وقد وردت في بيت لأبي العلا المعري في رسالة الغفران ، قال :

ست ان أعيـاك امرى فاحملينى زُقّفونا

وقد اطلق لقب « **السيد** » و « **سيدي** » **على جماعة من غير المسلمين** اشهرهم البطل المسيحي الاسباني رودريجو دياز Rodrigo Diaz da Vivar الذي لقب بـ « **السيد** » وغلب هذا اللقب على اسمه . وهو من أشهر أبطال فرسان قشتالة في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي . وهو نبيل قشتالي (ولد سنة ١٠٢٦م أو سنة ١٠٤٠م) ؛ وقد عاون صاحب قشتالة Sancho II على توسيع رقعة مملكته واصبح أمير جيشه بلقب Campeador (من اللاتينية Campeator التي كان العرب يكتبونها « الكنتبيطور » ـ يلاحظ أن النون في هذا الموضع تنطق ميما وهي بمعنى « مبارز » أو « براز ») عاون رودريجو بخالص نصحه صاحب نشتالة على أن يصبح حاكم مملكة « ليون » Leon وذلك بأسره اخاه الفونسو . ولكن بعد مقتل صاحب قشتالة تولى امرها أخوه الأسير الفونسو السادس ، وكان يحقد على رودريجو فنفاه خارج ممتلكاته . ومن ذلك الوقت أخذ رودريجو يحارب المسلمين او المسيحيين خدمة لطرف ثالث أو خدمة لنفسه . ثم عرض رودريجو خدماته على أحمد بن سليمان المقتدر صاحب سرقسطة Saragossa فضمه المقتدر الى جيشه هو وجنوده المرتزقة . وقد مات المقتدر في نفس السنة التي انضم اليه فيها رودريجو وجنوده؛ وتولى حكم سرقسطة بعده ابنه يوسف المؤتمن؛ وظل رودريجو في خدمة المؤتمن ، وتولى ابن آخر للمقتدر هو المنذر حكم مقاطعات اخرى. =

وقد اقتضى تحول مصر من النظام الملكي الى النظام الجمهوري حذف «ملكي» (أو « ملكية » وما اليها) من العبارات التي كانت ترد فيها صفة لها فأصبح يقال : « الجمهورية المصرية » و « القصر الجمهوري » و « الديوان الجمهوري » و «مرسوم جمهوري» و «جيش الجمهورية» و «ملاح الطيران الجمهوري» الخ .

وقد نتج عن قضاء ثورة الجيش على الاحزاب التي كانت موجودة قبل قيامها، وعن تحديدها للملكية الزراعية أن أصبحت بعض كلمات وعبارات تهمة يخاف الناس أن يوصفوا بها مثل « حزبي » ، أو « وفدي » ، أو « اخواني » (من « الأخوان المسلمين ») ، أو « اقطاعي » ، أو « من كبار الملاك » .

وقد كثر استعمال كلمة « **التحرير** » مع ثورة الجيش فهناك « هيئة التحرير » و « مديرية التحرير » و « جيش التحرير » . ومن العبارات والكلمات التي كثر استعمالها مع الثورة « الاتحاد والنظام والعمل » و « العزة » و « الكرامة » و «القومية العربية» و « التأميم » (بعد تأميم شركة قناة السويس بصفة خاصة).

واستعملت في مصر عبارات دالة على منظمات لم يكن لها وجود مثل « الحرس الوطني » .

= وما لبثت الحرب أن شبت بين الأخوين وقد تحالف المنذر مع مسيحيين هما ملك أرجون Argon وصاحب برشلونة . وسرعان ما أحرز رودريجو نصرا بينا على اعداء سيده المؤتمن على الرغم من تفوقهم العددي ؛ وغنم مغانم كبيرة ؛ وأسر صاحب برشلونة ثم أطلق سراحه متكرما ؛ ولما عاد الى سرقسطة استقبل استقبالا باهرا وأغدق عليه المؤتمن الهدايا ، وعلا شأنه في نظر المسلمين من جنده فأخذوا من ذلك الوقت يلقبونه بـ « سيدي » و (وهي بالعامية « سيدي ») وقد ترجمت الى الاسبانية بـ mio Cid (ويلاحظ أن قصيدة Cid ال المشهورة كانت تسمى أصلا El Cantar de mio Cid) وكثر استعمالها في الاسبانية بهذه الصورة او بحذف ضمير الملكية وهو mio (الكلام عن رودريجو مأخوذ عن مادة Sid دائرة المعارف الاسلامية) . ومن الاسبانية انتقلت كلمة « سيد » الى غيرها من اللغات الأوروبية .

ومن الملاحظ أن « السيد » كان يطلق في اسبانيا الاسلامية على المسلمين ؛ ومن ذلك « ابن السيد البطليوسي » العالم المشهور ؛ والكلمة بهذه الصورة ، أي بالألف واللام وبكسر السين » لا تستعمل في بلاد عربية شرقية كمصر مثلا ، وهي لا تزال تسمع في مراكش .

وكما يحدث فى كل الثورات والانقلابات فقد طرأ تغير على **اسماء الأعلام** كأسماء الشوارع والمحلات والأماكن والاشخاص ، فغيرت أسماء شوارع كثيرة كانت معروفة بأسماء أجنبية أو بأسماء مصريين اعتبروا أعداء للشعب كأسرة محمد على بأسماء تتلاءم والوضع الجديد كـ «طريق الجيش» و « طريق ٢٦ يوليو» و «ميدان التحرير» ؛ وأصبحنا نطالع على واجهات بعض المحلات والمنشئات « مطعم الجمهورية » « كازينو التحرير » ، « قهوة النصر » ، « سينما الجلاء » .

واذ كانت مصر لا تتعاون مع روسيا أيام الملكية فقد كان يحيط بكلمات مثل « روسيا » و « روسى » و « سوفييت » و « سوفييتى » و « الشيوعية » و «شيوعى» و «الماركسية» و «ماركسى» شىء من الخوف والغموض، ولكن هذا قد زال بعد ما قام من تعاون بين الدولتين حديثا .

(٧) ومن عناصر دراسة لغة السياسة ، دراسة **اللغة التى تستعملها الدول المتحالفة او المتجاورة او التى تربط بينها روابط اخرى** غير التحالف والتجاور أو فضلا عن أحدهما أو كليهما ، فى حديثها بعضها عن بعض ، وفى الاشارة الى ما بينها من صلات . ومن ذلك اللغة المستعملة فى مصر عن السودان ، وفى السودان عن مصر ، واللغة المستعملة فى العلاقات بين الدول العربية والاسلامية . فنحن فى مصر نشير الى السودان بـ « جنوب الوادى » و « الأخ الشقيق » ، والى السودانيين بـ « اخواننا السودانيون » ، ويصفون مصر فى السودان بقولهم « شمال الوادى » . ومن العبارات ذات الأثر فى الشعوب العربية والاسلامية « الرابطة الاسلامية » و « الجامعة الاسلامية » و « الجامعة العربية » و « العروبة » و « الأخوة فى العروبة » و « القومية العربية » و « الدفاع عن العروبة » و « فلسطين الشهيدة » و « وحدة اللغة » و « وحدة التاريخ » و « التاريخ المشترك » و « المؤتمر الاسلامى » ؛ وان لكل من هذه العبارات تاريخه الذى يجب أن يبين .

(٨) ومما يدخل فى لغة السياسة **لغة البيانات السياسية** التى تصدرها دولة باسمها، وتلك التى تصدر بالاشتراك بين دولتين أو أكثر ؛ **ولغة الاتفاقات الدولية** ؛ ولغة قطع العلاقات الدبلوماسية بين دولتين ، او لغة اعادة هذه العلاقات ؛ ولغة انشاء علاقات دبلوماسية بين دولتين لم تكن هذه العلاقات قائمة بينها ؛ ولغة طلب ابعاد

بعض الممثلين الدبلوماسيين ؛ ولغة الانذارات الدولية . . الخ .

(٩) كما أن **للمعاهدات والاتفاقات الدولية** ، حربية وسياسية واقتصادية وثقافية وللصلح ولعدم الاعتداء **لغتها الخاصة** بها . وهذه اللغة يكثر فيها أمثال «الصداقة» و «المودة» و «الأخوة» و «التحالف» و «المصلحة المشتركة» و «المصلحة المتبادلة» و « تبادل المنافع » و « العدو المشترك » و « تنمية الموارد » و « المساعدة على النهوض » و « اقرار السلام » و « تدعيم الاقتصاد » و « العدو المشترك » .. الخ. وهذه الكلمات والعبارات ، كما هى الصفة الغالبة على معظم المصطلحات السياسية تخفى الأفكار الحقيقية ، أو هى تدل عليها بطريق آخر ، طريق المجاز ؛ ولذلك قيل[1] انه ربما لا يبرر أى قسم من أقسام الكلام الانسانى قول من يقول ان الوظيفة الأساسية للغة هى « اخفاء » الفكر لا « اظهاره » كما يبرره استعمال الكلام فى المجال السياسى .

(١٠) وان **مخاطبة الجماهير التأثير السياسى** تنتظر أن تدرس الدرس العلمى الفصل . ودور « البلاغة » أو الفن الكلامى فى هذا المجال لا يقل عن دور الحيل النفسية التى يلجأ اليها الخطباء . ان دراسة لغة كيكرو (شيشرون) لا سيما فى خطبه الكتلينية دفاعا عن شرفه ومجده السياسى ، وهجوما على أعدائه وأعوانهم ، وفضحا لمؤامرتهم وخبثهم لتظهر كيف أمكن للغة فى استعمال خاص لها أن تحدث فى الجمهور تلك التأثيرات التى تركتها تلك الخطب فى نفوس مستمعيها . وخطب الحجاج بن يوسف الثقفى كانت آلة ارهاب ووسيلة ردع واخماد . وخطب مصطفى كامل وسعد زغلول كانت مثيرة للشعور القومى من رقدته ، وموقظة للنهضة المصرية ، ودافعة بها قدما .

ومن السمات العامة فى مخاطبة الجماهير للتأثير السياسى استعمال الكلمات القديمة الغامضة المعنى ، والكلمات ذات الرنين والطنين ، وتلوين الكلام بلون دينى وذكر المقدسات، والاشارة الى الفضائل كالشرف والتضحية والاقدام ، وتمجيد المواقف المشهورة فى تاريخ الأمة ، واقتناص العبارات التى يمكن ثبوتها فى الأذهان

(١) انظر Margaret Selanch, op. cit., p. 290 . والقائل بأن وظيفة اللغة هى اخفاء الأفكار هو تاليران Talleyrand الفرنسى .

ودورانها على الألسنة والأقلام ، واقتباس المشهور المحفوظ من مؤثر الكلام. وقد لوحظ[1] فى استعمال الانجليزية الحديثة فى هذا المجال أن الخطباء يلجأون الى ضمائر قديمة مثل thee و thou و ye ، والى نهايات أفعال طال العهد على اهمالها (مثل giveth) ، والى تركيبات لم تعد مفهومة هذه الايام مثل ! Woe worth the day! ، والى عبارات من الكتاب المقدس وأنهم يتحدثون عن الدفاع عن « أبواب » المدينة gates أو « أسوارها » walls مع أنه لم يعد شىء من ذلك قائما ، وذلك عندما يقصدون الى التأثير فى الشعور أكثر من التأثير فى العقل .

(١) المرجع السابق ص ٢٨٩

اللغة والحياة الاقتصادية

(أ) ان اللغة المستعملة فى الجوانب المختلفة والمستويات المختلفة للحياة الاقتصادية تقدم للباحث اللغوى مادة خصبة يؤدى تحليلها الى نتائج قيمة. وهذه المادة يستقيها من أبسط صور النشاط الاقتصادى — كالبيع والشراء فى أبسط صورهما وأضيق حدودهما — الى أشدها تعقيدا ، وأوسعها نطاقا كأعمال الشركات الكبرى ، وأعمال المصارف ، وأسواق الأوراق المالية ، والنظريات الاقتصادية . ويلاحظ أن هذه المادة تتفاوت بتفاوت طبقات المتعاملين ، وبالوضع الحضارى للمجتمع ، وبسوى ذلك من أمور ؛ وهذا التفاوت يتبدّى فى كل جانب من جوانب النشاط الاقتصادى .

(ا) **فطريقة العد** وما فى اللغة أو اللهجة من أعداد ، لا يزالان عند بعض القبائل فى مرحلة بدائية ساذجة ؛ وهما يبلغان عند أعظم الأمم حضارة درجة عالية من التفصيل والتعقيد ؛ وهذان يختلفان عند أصحاب اللغة الواحدة حسب حظ المتكلم من الثقافة .

(٢) **ولغة « المساومة »** تقدم مادة طريفة لدارس اللغة. ويلاحظ أن المساومة مرتبطة بالبداوة أو بألوان من البداوة ، وأنها تقل أو تكاد تتبلور فى ايماءات ، أو كلمات شديدة الايجاز ، أو أنواع من الاستفسار فى الأمم المتحضرة التى تحيا حياة معقدة . ويلاحظ انه فى معظم الأحوال تكون « المساومة » عنصرا أساسيا من عملية البيع والشراء ، ويكون المشترى والبائع على أهبة للمساومة مقدما ؛ وأن الاطالة فيها تكون أحيانا نوعا من الدخول فى علاقات عن طريق الكلام ، ولونا من التسرية عن النفس ومن تزجية الوقت . وان تصنيف لغة المساومة حسب طبقات البائعين ، وطبقات المشترين ؛ وحسب مزجة هؤلاء وأولئك وطبائعهم ، وحسب السلعة موضوع البيع والشراء لأمر واجب على الباحث اللغوى .

(٣) و **« المزايدة »** لها لغتها الخاصة بها ودراستها تظهرنا على وظائف للغة فريدة .

(٤) ودراسة حيل البائعين والمشترين والوسطاء ، وألوان مغالطتهم وخداعهم وأفانين غشهم كما تبدو فى تعبيراتهم اللغوية موضوع له أهميته .

(٥) أمّا « **الاعلان** » فلغته مجال فسيح للباحث اللغوى . ودراسته فى صوره المختلفة ، من أبسطها وأشدها سذاجة كنداءات البائعين الى أكثرها تعقيدا وفنية ، تظهر استعمالات للكلام لتحقيق غايات معينة من أهمها جذب الانتباه وحصره فى موضوع بعينه ، والتشويق والترغيب ، للحمل على التملك والاقتناء . ان لغة الاعلان تخاطب فينا غرائز وحواس تختلف باختلاف الموضوع المعلن عنه ، فكلام الاعلان عن مأكول أو مشروب يوجه الى حواس غير تلك التى يتجه اليها كلام اعلان عن سيارة أو آخر عن دواء ، وهو يثير غريزة غير تلك التى يثيرها هذا أو ذاك . وسيلاحظ فى لغة الاعلان اختلافها باختلاف الوضع الحضارى للأمة : فنداءات **البائعين الجائلين** فى الجماعات البدوية والقريبة منها يكثر فيها اللجوء الى المجاز والتشبيه والى السجع وغيره من ضروب الترصيع ويبرز فيها على الجملة الاطالة فى المناداة ، والتغنى والتلذذ بالكلام . أما المجتمعات التى قطعت من المدنية شوطا كبيرا وتعقدت أمورها ولم يعد لها من الوقت ما تضيعه فى النداء وفى الاستماع اليه ، وقل فيها دور البائعين الجائلين ، فنداءات هؤلاء فيها تقتصر على أوجز عبارة وأدلها .

ثم ان نداءات البائعين تختلف باختلاف حظ الجماعة وحظ البائعين أنفسهم من الذكاء والحيوية : فالجماعات المولعة بالكلام وبـ « الفصاحة » والفكاهة نجد فيها أمثلة رائعة على المناداة على السلع ، أما تلك المعروفة بالميل الى الاقتصاد فى الكلام ، والى الانطواء على النفس والى التزمت والتوقر ، والى النفور من الصراخ والضجيج فهى قليلة الحظ من الابتكار فى هذا المجال .

ومن النداءات المسموعة فى الاسكندرية ، بالعامية ، والتى يتضح فيها اللجوء الى التشبيه والمجاز ، والوصف بالجودة وصفا أشبه بالتغزل ، المناداة على السمك البلطى بـ « يا غَرِيم السَّلالة يا بَلْطِى » ، وعلى العنب بـ « يا بِيضِ اليمامْ يا عِنَبْ » ، وعلى البلح « الأمهات » الذى يسيل شهدا بـ « يا مِينْ يِجِيب الأَتَاجِرْ ! » وعلى الفول المدمس بـ « اللوز ! » وبـ « الزغاليل ! » . ومن

الملاحظ أن من البائعين من يتفنن فى خلق نداءات جديدة ، ولا يكتفى بترداد المحفوظ المتوارث منها ، ومن ذلك أنى سمعت فى الاسكندرية بائع « شمام » ينادى على سلعته وهو يحملق فى حسناء مارة أمامه ويعرّض بها بقوله : « مِنْ بَرَّه حِلْو ومِنْ جُوَّه شَهْد » ! ومن النداءات ما يكتفى بذكر اسم السلعة ومن ذلك فى مصر « حليب » ، أو بذكرها مسندة الى البلد الذى ينتجه مثل «أَسْيُوطِى يا بَلَحْ» و «فَيُّومِى يا عنب » ، أو كذلك مضافا اليه وصفها بالجودة مثل « الكتاكيت الفَيُّومى عال » . وقد لاحظت أن أكثر المنادين على السمك فى مدينة بنغازى بليبيا يكتفون بذكر الاسم مكررا سريعا « حُوت حُوت ! بُورِى بُورِى ! »

وكثير من النداءات على السلع فى مصر يخاطب العاطفة الدينية فيتردد فيها الصلاة على النبى والتغنى ببركته مثل « صَلاةُ النَّبِى عَلَيْكْ يا عنب » و «صلاة النبى أحسن » و « صَلِّى على النبى » و « صلى على المصطفى » و « صلى على الزَّين » و « البنى حارِسَكْ يا مِشْمِشْ » . وعبارة « يا سلامْ عليكْ يا » مردوفة باسم السلعة طريقة مألوفة من النداء فى مصر .

أما **الاعلان المسموع عن طريق الراديو** ، فى بعض الأمم فهو لا يسف الى طريقة البائعين الجائلين ، ولكنه فى أغلب الأحيان لا يكون جادا كل الجد ، انما يعتمد أكثر ما يعتمد على العرض الرزين المشوّق معا ، وقد يتخذ صورة حوار بين اثنين أو أكثر ، وقد تصحبه موسيقى ، وقد يظهر كله أو جانب منه فى صورة أغنية أو « مونولوج » .

أما تلك **الاعلانات المكتوبة** على واجهات المحلات ، أو المطبوعة فى أوراق خاصة توزع على الجمهور أو على أدوات معينة كالتقويمات ، أو فى الصحف والمجلات ، وتلك التى تشاهد فى السينما والتليفزيون فهى تشترك فى صفات لما كانت جميعا تعتمد على الكتابة وينفرد كل منها بصفات حسب طبيعته المتميزة . ولغة الاعلان بكل طريقة من هذه يجب أن تدرس أولا على حدة .

ان اللغة المكتوبة تخاطب العين وهى لذلك تعتمد على الخط واللون والرسم والتصوير والزخرفة والضوء ، ويجتمع توجيه الخطاب الى العين والأذن معا فى اعلانات السينما والتليفزيون .

ومن الملاحظ أن الاعلانات المكتوبة على واجهات المحلات تختلف باختلاف الأحياء فى المدينة الواحدة ، وباختلاف مستوى المحل والمترددين عليه . والمتطلع الى واجهات المحلات فى حى سيدنا الحسين بالقاهرة يجد مكتوبا على الكثير منها اعلانات تتصل بالجو الدينى لهذا الحى ومن ذلك « كُلْ كبدة وكلاوى زين ، وصلى على سيدنا الحسين » و « كُلْ كبده وكلاوى زين واقرأ الفاتحة لسيدنا الحسين » . وهذه العبارات المستعملة فى حى الحسين لا تستعمل فى محلات شارع فؤاد وميدان التحرير . فالمحلات « الراقية » تلجأ الى اعلانات فيها شىء من الجد والوقار ، ولكن هذا لا يحول دون استعمال الكلمات والعبارات الجذابة ، والغريبة أحيانا ، ومن ذلك تسمية محل : « من غير اسم » .

وثمة طبقات من المحلات والهيئات تلتزم الجد فى اعلاناتها ، ومن ذلك الصيدليات ، اما لأنه لايجوز لها أن تظهر صفة التنافس واما لسوى ذلك من الأسباب .

والاعلانات فى الصحف والمجلات والسينما والتلفزيون يكون الكلام جزءا منها ولا يكون كل شىء ، انه عنصر من كل متكامل — أو يجب أن يكون كذلك — فالرسم والصور والألوان وتنسيقها ، وتنسيق ذلك مع الكتابة له دلالته .

والاعلان من طريق السينما والتليفزيون امكانياته الخاصة اذ يجتمع فيه الكلام المسموع ، والتصوير المنظور ، وبهذا يستغل ما يمكن استغلاله من الفن الكلامى بالاضافة الى ما يمكن استغلاله من التصوير والتمثيل والغناء والموسيقى والرقص .

ومن أول ما يلاحظ فى لغة الاعلان المكتوب أنه يكثر فيه استعمال الحروف الكتابية وعلامات النقط والترقيم استعمالا مخالفا للمألوف فى الكتابة العادية . فالكلمة أو العبارة قد تكتب — فى العربية مثلا — مقطعة الحروف حرفا حرفا لا موصولة الحروف ، وقد تكتب بصورة تختلف عن صورتها العادية اما ملاءمة للمادة التى تكتب بها خشبا أو حجرا أو معدنا أو غير ذلك ، واما مراعاة للموضوع المعلن عنه ، أو لهذين معا . أما علامات النقط والترقيم فقد اكتسبت فى لغة الاعلان دلالات جديدة : فقد يبدأ الاعلان بعلامة استفهام ليس قبلها كلام ، أو بعلامة تعجب ، أو بهما معا ، أو بمجموعة من النقط الأفقية ، أو بمجموعة من النقط الأفقية تعقبها علامة استفهام أو علامة تعجب . ومن الملاحظ أن علامات الاستفهام

والتعجب كثيرا ما تضاعف متوالية فى الاعلانات المكتوبة .

ولا شك فى أن الاعلان — أيا كانت صورته — يراعى فيه مناسبته الموضوع المعلن عنه ؛ والأمثلة كثيرة على أن عدم التوفيق فى اختيار الاسم أو الاعلان يؤدى الى الفشل والكساد ، بينما يؤدى التوفيق فيه الى الشهرة والاقبال .

(٦) ان دراسة اللغة المستعملة فى وجه النشاط الاقتصادى ممنوجة كذلك الى دراسة ألوان من الكلمات والتعبيرات تمتاز بالجفاف بالقياس الى ما قدمنا الكلام عنه . فلا بد من حصر جميع المصطلحات الخاصة بكل وجه من وجوه هذا النشاط وتقويمها التقويم الصحيح ؛ ويدخل فى ذلك مصطلحات التعاقد والاستئجار والشحن والتأمين ، ومصطلحات المراسلات ، ومصطلحات التسجيل فى الدفاتر ، والمصطلحات المستعملة فى « الفواتير » وفى الشهادات الخاصة بجودة السلع وسلامتها ووزنها ، ومصطلحات التقاضى حال الخلاف . وما من شك فى أن دراسة مصطلحات النظريات الاقتصادية نفسها من ألزم الأمور وأهمها .

(ب) ولغة كل من الحياتين الزراعية والصناعية تمثل ألوانا من العلاقات بين اللغة والمجتمع بعضها يتمثل فى استعمال اللغة فى غير هذين المجالين ، وبعضها يتضح فيهما أجلى مما يتضح فى سواهما .

(١) من المعروف أن لكل من هذين الميدانين ، بل لكل فرع من فروعهما مفرداته الخاصة ، وأن من هذه المفردات ما لا يستعمله ولا يعرف مدلوله الا أصحاب هذين النشاطين وبعض من يقدر له الاتصال بهم فى شئونهما ، وان كانت هذه الظاهرة تحتاج الى من يدرسها دراسة مفصلة مستوعبة[1] . ولكن الأمر أبعد من هذا وأعمق ؛ فالغالب أن الكلام الذى يستعمله كل من أصحاب هذين النشاطين — بما فيه من تركيبات خاصة واستعارات وتشبيهات وأمثال ، بل بما فيه من طريقة نطق الكلمات ولو كانت من مفردات اللغة المشتركة الشائعة — دالٌ على عمله وعلى طبقته

(١) أورد الأستاذ على عبد الواحد وافى فى هامش ص ١٥١ من كتابه «اللغة والمجتمع» (الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة نشر عيسى البابى الحلبى وشركاه ١٩٥١) بعض مفردات خاصة بالصيادين والبحارة المصريين نقل بعضها من مقال للأستاذ ابراهيم محمد الفحام وسجل بعضها بنفسه من لغة بحارة رشيد .

الاجتماعية ، وان اختلفت الدلالة نسبة باختلاف الأفراد والظروف والعصور .

(٢) ومن شواهد اختلاف لغة أصحاب **الحرفة الواحدة باختلاف العصور** أنه عندما تكون الحرف والصناعات وقفا على أسر معينة يتوارثونها فان لهجاتهم تكون أشد تمييزا لهم منها عندما يسمح المجتمع لمن يشاء بالاشتغال بالحرفة أو الصناعة التى يختارها . وهكذا اذا قارنا بين كلام أصحاب حرفة معينة فى القرن التاسع عشر فى مصر بكلام المشتغلين بهذه الحرفة نفسها فى مصر اليوم فانا سنجد فروقا مردها الى هذا السبب نفسه فضلا عن تلك الراجعة الى التطور التاريخى العام .

(٣) **والأمثال التى يستعملها الزراع والصناع** ، بل كل فئة من فئات الزراع ومن فئات الصناع، من أطرف الموضوعات الجديرة بالدراسة . ومن هذه الامثال ما يستفيض فيصبح جزءا من « اللغة العامة » تستعملها الجماعة على اختلاف طبقاتها ، **ومنه ما يظل محصورا فى بيئته** لشدة لصوقه بها أو لغير ذلك من الأسباب . وهذه الامثال ، كسواها ، تتسم بميسم المحافظة والتوارث، الا أنه مما لا شك فيه أن التغيرات الكبيرة التى تصيب هاتين الطبقتين ، كالتوسع فى استعمال الآلات فى الزراعة، وكالانقلاب الصناعى ، لها آثارها فى استحداث أمثال جديدة وفى لهجتهم الخاصة على وجه العموم . ومن واجب الباحث اللغوى أن يربط كلا بأصله وسببه .

(٤) ومن الملاحظ أن **لكل من الزراع والصناع ، كالتجار ، رموزهم الكلامية** الخاصة بهم التى ينحصر فهم مدلولاتها فيهم وفيمن يتصل بهم، كما أن لهم تعبيرات كلامية تستهدف التهكم على غيرهم من سائر الطبقات الاجتماعية . وهذه الرموز والتعبيرات قد تكون من وضع أفراد منهم ، وقد تكون مأخوذة من لغات أجنبية ، وقد تكون استعمالا خاصا لكلمات وتعبيرات من كلمات اللغة العامة وتعبيراتها .

(٥) ومن أهم ما يجدر بدارسى اللغة الالتفات اليه ، والعناية به ، أن **الكلام فى كثير من وجوه النشاط الزراعى والصناعى يكون جزءا من العمل** : فحديث الفلاح الى بهيمته وآلته ، وغناؤه عند الحرث والرى والحصد ، وكلام الحداد عند الطرق والنفخ فى الكور ، وغناء « الفعلة » الذى يقوده رئيس لهم ، كل ذلك وأمثاله جزء من العمل معين على اتمامه . ومن الواجب أن يجمع كل صنف من صنوف هذا

النشاط اللغوى — فى كل لغة — وأن يفسّر موصولا بالظروف التى يستعمل فيها، وبالوظيفة التى يؤديها .

(٦) والصناعات والحرف من أهم أبواب **الاحتفاظ بالكلم القديم** ، كما أنها من أهم أبواب **دخول الكلم الحديث** أجنبيا كان أو أصيلا . ومن الملاحظ أن الجماعة التى تتغلب على لغتها لغة أخرى تحتفظ، بعد سيادة اللغة الطارئة ، بكثير من مفردات اللغة الأولى ، ومنها ما يتعلق بالحرف والصناعة والزراعة ، وخاصة اذا كان أصحاب اللغة المتغلبة أدنى شأنا فى هذه الأمور . فالعامية المصرية قد احتفظت بكثير من الكلمات القبطية المتعلقة بالزراعة (كأسماء الشهور ، والمواسم الزراعية ، وأسماء بعض الآلات الزراعية) وبالصناعة ؛ والعامية العراقية استبقت كثيرا من الكلمات البابلية والأشورية ، والفارسية المتعلقة بهذه الموضوعات .

(٧) والصناعات وفنون الزراعة التى تأخذها جماعة عن أخرى تنتقل معها ، فى الأغلب ، أسماؤها الموضوعة لها فى **لغة المأخوذ عنهم** ؛ كما أنها تكون مثيرا الى **وضع كلمات جديدة** . وهكذا فالانقلاب الصناعى الحديث الذى كانت أوروبا مهدا له ، وتأثرت به معظم أمم العالم ، نقل معه الى كثير من اللغات كلمات من لغات أوروبية مختلفة . واذا نظرنا الى العربية فى مصر ، عاميها وفصيحها ، وجدنا فيها كثيرا من الكلمات الفرنسية والانجليزية والايطالية والألمانية واليونانية ، وغيرها ، المتصلة بالهندسة والميكانيكا والآلات الصناعية الحديثة المأخوذة عن الغرب (مثل : ديزل — تنك — دريكسيون — ستبن — جير — بستن الخ) . كما أن هذا التأثر بالتطور الصناعى الحديث دعا الى تغيير مدلولات كثير من الكلمات العربية ، والى اشتقاق كلمات جديدة من أصول عربية خالصة . ولما اتخذت مصر الزى الأوروبى الحديث سرت فى لغة الخياطين المصريين كلمات غربية أكثرها من الايطالية (مثل : مَزُورا — فودرة — فرساليا — سكوندو بروفه الخ) .

اللغة والحيـــاة الدينية

(١) **الدين مجال تستعمل فيه اللغة بما لا تستعمل فى سـواه** فالدين وثنيا كان أو سماويا ، موحدا أو معدّدا ، قديما أو حديثا له بطبيعته أسلوبه المتفرد المستقل. فالعلاقة التى يقيمها الدين بين الفرد وبين قوة عليا فى يدها مصائر وأقدار ، ويجب لها القربى والخشوع : ولها آياتها وأحكامها ، وأقوالها وأعمالها ، وعقابها وثوابها ، ويضفى الايمان بها على النفس سكينة وصفاء ، ويهبها قوة ومضاء ، ويدفعها فى حالات الى التضحية بالنفس والمال والولد راضية مستبشرة ؛ هذه العلاقة لهـا لغتها ، لا فى الكلام المضاف الى المعبود وحده ، بل فى كل كلام متعلق بأى شـأن من شئونها .

والكلام « المقدس » عند كل جماعة نموذج رائع من نماذج البيان ؛ وهـو بالقياس الى الروائع الأدبية المأثورة عن أى جماعة فى العصر الذى يشهد الكـلام المقدس من أروعها أو هو أروعها على الاطلاق .

(٢) ومن أهم ما يلاحظ على لغة الدين استعمالها لكثير من **الكلم الغـامض** الخفى ؛ ومنه كلمات وعبارات مخلوقة غير مستعملة فى اللغة العامة (وذلك كاستعمال الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور القرآنيـة : يس ــ طسم ــ الم ــ الر ــ كهيعص الخ مما لا يعرف معناه على الحقيقة ، وأوله المفسرون والدارسون قديمـا وحديثا تأويلات كثيرة) . ومن ذلك استعمال كلمات قديمة ، واستعمال كلمـات من لغات أجنبية، وذلك كما تستعمل العربية فى لغة السحر والكهانة والتنجيم كلمات من أصول سريانية . والمطلع على **الشعر الدينى لأمية بن أبى الصلت الثقفى الجاهلى** يجد عشرات من المفردات لا يجدها عند سواه من شعراء العصر الذين لم يقولوا فيما قال[1] .

---

(١) أتيح لى دراسة الغريب فى شعر امية بن ابى الصلت من حيث تأثيره فى موسيقى الشعر فى رسالتى التى حصلت بها على درجة الماجستير ؛ (وموضـوعها : الصناعة الشعرية فى العصر الجاهلى من حيث الموسيقى وبنيـة القصيدة) ، ولما كانت هـذه

. . . . . .

الرسالة لم تنشر بعد فانا انقل عنها فيما يلى ما كتبته فى هذا الموضوع سنة ١٩٤٧ ؛ قلت :

« المقول فى الايقاع الشعرى على أصوات الكلمات وطريقة نظمها ؛ والف الآذان الكلمات يفقدها كثيرا من قيمها الصوتية ، ومن هنا كان الشـاعر فى حاجة الى منبـع متجدد يستقى منه أصواتا خلابة ، وانه يقع على هذا المنبع فى غريب المفردات . وقـد تكون الغرابة نتيجة الجدة ، أو الندرة ، أو ان الكلمة أجنبية ، أو محلية ، أو صعبة ، أو مركبة ، أو غير مألوفة الاشتقاق . وخير مثال فى الشعر الجاهلى لاصطناع الغريب هو أمية بن ابى الصلت الثقفى .

أمية شاعر حكيم كان عالما بالحنيفية، واتصل بأهل الكتاب من اليهود والنصارى، وقرأ الكتب الدينية القديمة ، فكره الأوثان ، واصبح موحدا يذكر الآخرة والحسـاب والثواب والعقاب . وكان يطمـع أن يكون هو ذلك النبى المنتظر فلما لم يكنه اغتـاظ وتأسف واشتد حسده للرسول وناصبه العداء ، ولذا قال فيه الرسول : « ان كاد امية ليسلم » وقال : « آمن شعره وكفر قلبه » .

ان شعر امية الدينى صادر عن ثقافة حنيفية يهودية نصرانيـة ، وهى ليست ثقافة سطحية ، فانه ــ كما تقول الروايات ــ كان يقرأ الكتب القديمة ويتعمقها ، فكان يعلم من الموضوعات الدينية وعنها ما لا يعلمه غيره من شعراء عصره . كان امية كثير الايراد للقصـص الدينى ، ولم يكن بعض هذا القصص منتشرا بين العرب كما يتضح مما قاله ابن قتيبة فى الشعر والشعراء (ص ١٧٦ ــ ١٧٧ تصحيح مصطفى السقا ــ ط. المعاهد مصر (الثانية) ١٩٣٢م) « وأتى بألفاظ كثيرة لا تعرفها العرب ، وكان يأخذها من الكتب ، منها قوله : (وخان أمانة الديك الغراب) . وزعم أن الديك كان نديما للغراب فرهنه على الخمر وغدر به ، وتركه عند الخمار ، فجعله الخمار حارسا . وقوله فى الشمس :

ليست بطالعة لهم فى رسلها ... الا معذبـة والا تجلـد

وقوله :

غيم وظلمـاء وفضـل سـحابة ... أيـام كفن واسـتراد الهـدهد

يبقى القـرار لأمـه ليجنهـا ... فبنا عليه (عليها) فى قفاه (قفاها) يمهد

فيزال يـدلج مـا مضى بجنـازة ... منها وما اختلف الجديد المسـند

وواضح أنه لا غرابة فى الفاظ (وخان أمانة الديك الغراب) وسائر الشواهد ولكن القصص هو الغريب .

ولما كان لكل جانب من جوانب الثقافة الفاظ موقوفة عليه ، وعبارات خاصة به ؛

. . . . . .

= فاننا نجد فى شعر أمية الدينى ألفاظا غير مألوفة عند غيره من الشعراء كان يحس بغرابتها الأقدمون ، وتناقلوا أمرها فيما بينهم .

وربما كان بعض هذه الألفاظ غير عربى الأصل اخذها عن الحبشية والسريانية والعبرية .

وتأثير أمية عن هذه الطريق يشبه تأثير الساحر والكاهن ؛ فكلاهما يورد كلمات وصيغا غير مألوفة يخطف بها السمع واللب ، فيخضع النفس لسيطرته ، ويتركها مبهورة معلقة ، فيسهل عليه توجيهها كيف شاء ؛ وقد يقتضى الأمر اختراع كلمات وتصريفات جديدة للوصول عن طريق موسيقاها الى السيطرة على النفوس .

واذا كان الكثير من المنسوب الى أمية غير صحيح النسبة اليه ، الا ان القدماء أنفسهم لاحظوا غرابة قاموسه الشعرى ؛ فايرادنا لشواهد من شعره تبيانا لهذه الغرابة لا يجوز أن يرد استنادا الى كثرة المنحول من شعره ، فالذى يهمنا ان الاغراب اللفظى عند أمية قائم مقرر — ولذا اسقطه علماء اللغة من الاستشهاد والاحتجاج بلغته على الكتاب — سواء كان ما نستشهد به من شعره صحيحا أو منحولا .

ولا يقتصر الأمر عند أمية على استعمال الفاظ غريبة عن العربية ، بل أن بعض الألفاظ العربية التى يستعملها ليست شائعة الاستعمال عند غيره من الجاهليين الذين وصلتنا أشعارهم . قال ابن قتيبة (ص ١٧٦ — ١٧٧) :

« وأتى بالفاظ كثيرة لا تعرفها العرب وكان يأخذها من الكتب منها قوله . . .

. . . . . ومنها قوله :—

قمر وساهور يسل وينمد

وزعم أهل الكتاب أن الساهور غلاف القمر يدخل فيه اذا انكسف . وكان يسمى السموات صاقورة وحاقورة ، ويقول (وأبدت الثغرورا) يريد الثغر . وعلماؤنا لا يرون شعره حجة على الكتاب . »

ونحن نورد فيما يلى ثبتا بالغريب فى شعر أمية مرتبا على حروف المعجم :

الأرخ — الأطوم (ديوان أمية بن أبى الصلت جمع بشير يموت — بيروت — ط. الوطنية ١٩٣٤ ص ٥٥) — أمط (ديوان ص ٤٦) — بداح (ص ٢٦) — بديد (ص ٢٦) — البيقورا (ص ٣٦) — تفنا (ص ٦٢) متلمد (ص ٢٤) الثأط (ص ١٨) و «ثأط» (ص ٢٦) — الثلل (ص ٤٧) — الجلاحمة (ص ٢١) — حاقورة (ص ٢٤) — حرمد (ص ٢٦) — حزجل (ص ٤٦) — الحش (ص ٥٧) — يخرمس (ص ٥٥) — مدسورا (ص ٣٦) — دسفانا (ص ٦٢) — دفعة (ص ٤٠) — « ذقطا » و «ذقطانا» (ص ٦٣) — رح رحارح (ص ٢١) — رذوم (ص ٤٥) — ساهور (ص ٢٥) — السراطمة (ص ٢١) — السرافيل (ص ٢٥) =

(٣) ان دراسة **كلام المعبود** موضوع غاية فى الأهمية فما فيه من الأمر المستعلى، ومن النهى المتنمر ، ومن الايجاز المقتصد اثباتا للقوة والاستعلاء ؛ وما فيه من أساليب الترغيب والترهيب ، والحجاج والتبيين ، وما سوى ذلك ؛ كل أولئك يتخذ صورة خاصة تشعر السامع (أو القارىء) أنه فى مجال الدين لا فى سواه .

(٤) وليس ثمة لغة دينية لا تبرع فى **استغلال الامكانيات الصوتية للغة** التى توضع بها ، كتتابع الأصوات ، والسجع ، والفواصل ، وتنغيم الكلام بحيث تحدث الأثر المطلوب اذ كان التأثير الصوتى من أهم المداخل الى النفس البشرية ؛ والأصل فى الكثير من الكلام الدينى أن يرتل وينشد موقعا منغما ، مصحوبا بموسيقى أو غير مصحوب ، ومصحوبا بموسيقى ورقص عند بعض الجماعات . وكثيرا ما ينتج عن الرغبة فى تحقيق أثر موسيقى معين أن تغيّر الكلمات عن صورها المألوفة .

ودارس شعر **عمر بن الفارض الصوفى** (٥٧٦ — ٦٣٢هـ) يجد من الشاعر حرصا على احداث آثار موسيقية غير تلك التى يحققها الوزن والقافية . وقد يبالغ

= سغورا (ص ٣٦) — السلاطح (ص ٢١) — السليطط (ص ٣٣) — سنفة (ص ٣٥) — شحيطا (ص ٥٠) — الشيزى (ص ٢٧) — صئبانا (ص ٦٢) — صاقورة (ص ٢٤) — صلقنا — (ص ٤٧) — الصوافى (ص ٢٥) — طخرورا (ص ٣٦) — الطرط (ص ٢٦) — عنكال (ص ٥٠) — أعلاط (ص ١٩) — عناص (ص ٢٤) — الفراريس (ص ٤٨) — قسيطا (ص ٢٦) — قوقة (ص ٣٦) — القومان (ص ٤٨) — القرق (ص ١٩) — الكتاب (ص ١٨) — تكرد (ص ٢٥) — الملاوثة (ص ٢١) — نؤخها (ص ٢٣) . »

(عن : محمود السمران : الصناعة الشعرية فى العصر الجاهلى من حيث الموسيقى وبنية القصيدة ص ١٢٨ — ١٣٢ (نسخة على الآلة الكاتبة محفوظة بمكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية) . وقد اكتفينا هنا بذكر الكلمات الغريبة ولكنا فى الأصل أوردنا بعد كل كلمة النص الشعرى الذى وردت فيه ، وأشرنا الى موضعها من ديوان أمية فى الهامش لا بعد الكلمة مباشرة) .

(١) ومن ذلك ورود «يحضرون» و «ارجعون» بدلا من «يحضرونى» و «ارجعونى» فى قوله تعالى : ,, وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك رب أن يحضرون . حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون . ،، (المؤمنون آيات ٩٧ — ٩٩) . ومنه ورود « اطيعون » بدلا من « اطيعونى » فى قوله تعالى حكاية لقول نوح لقومه : « قال يا قوم انى لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه واطيعون » (نوح ٢ — ٣) .

ابن الفارض فى ذلك أحيانا الى درجة الاملال والاثقال ؛ وقد تكون صنعته الموسيقية ، فى جملتها ، صنعة لفظية سطحية صارخة ، فهو يكثر من الجناس ، ومن الكلمات المتوازنة وليس بينها جناس ، ومن تقطيع البيت أقساما متوازنة ، كما يلجأ الى التصريع فى أواسط القصيدة فى بيت أو فى بيتين متتاليين أو فى مجموعة متتابعة من الأبيات ، والى التكرار ، والى غير هذا من وسائل اللعب بالكلمات . ولكن له أبياتا رقت صنعتها الموسيقية ودقت فحسن ايقاعها فى الأذن ؛ ومن ذلك قوله :ـ

زِدْنِى بفرط الحب فيك تحيُّرا ... وارحم حَشًى بلظَى هواكَ تسعُّرا
واذا سألتك أن أراك حقيقةً ... فاسمح ، ولا تجعل جوابى : لَن ترى
يا قلب أنت وعدتنى فى حبهم ... صبرًا ، فحاذرْ أن تضيق وتضجرا
ان الغرام هو الحياة فمُتْ به ... صَبًّا ، فحقك أن تموت وتعذرا
قل للذين تقدموا قبلى ، ومَنْ ... بعدى ، ومَنْ أضحى لأشجانى يرى :
«عنى خذوا» وبى اقتدوا» ولى اسمعوا» ... وتحدثوا بصبابتى بين الورى »
ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا ... سِرٌّ أرق من النسيم اذا سرى
وأباح طرفى نظرةً أمَّلتُها ... فغدوت معروفا ، وكنت منكَّرا
فغدَوْتُ مشتتَ بين جماله وجلاله ... وغدَا لسان الحال عنى مُخبرا
فكأدرِ لحاظك فى محاسن وجهه ... تَلْقَى جميع الحُسن فيه مُصوَّرا
لو أنّ كل الحُسن يكمل صورةً ... ورآه ، كان مُهَلِّلا ومكبِّرا .

ان دراسة موسيقى الكلام الدينى فى كل من موضوعاته المختلفة ، وفى كل لغة على حدتها ، موضوع خصب قيم .

---

(١) « ديوان ابن الفارض » نشر وطبع البابى الحلبى بمصر ؛ الطبعة الأولى سنة ١٩٥٣ ص ٦١ ـ ٦٢ . ومن ذلك قوله (ص ٦٥ ـ ٦٦) :

أنتمُ قروضى وتفلى ... أنتمُ حديثى وشغلى
يا قبلتى فى صلاتى ... اذا وقفتُ اصلّى
جمالكم نصب عينى ... اليه وجهتُ كلّى
وسِرُّكم فى ضميرى ... والقلب طورُ التجلى
أنستُ فى الحىِّ ناراً ... ليلاً فبشّرتُ أهلى
قلتُ امكثوا فلعلّى ... أجِدْ هُدَاىَ لعلّى
دنوتُ منها فكانتْ ... نارَ المكلّم قبلى
نُودِيتُ منها كفاحاً ... رُدُّوا ليالىَ وصلى
صارت جبالىَ دكّا ... من هيبة المُتجلّى
ولاح سرٌّ خفىٌّ ... يدريه مَنْ كان مِثلى

= وصرتُ موسى زمانى ... منذ صار بَعضىَ كلّى
فالموتُ فيه حياتى ... وفى حياتى قتلى
أنا الفقيرُ المُعنّى ... رِقّوا لحالى وذلّى

ومن قول ابن الفارض فى تائيته الكبرى المسماة بنظم السلوك (الديوان ص ٨٦) :

سقتنى حُميّا الحب راحةُ مقلتى ... وكأسى محيّا مَن من الحسن جلّت
فأوهمتُ صحبى أن شرب شرابهم ... به سُرّ سِرّى فى انتشائى بنظرة
وبالحدق استغنيت عن قدحى ومن ... شمائلها لا من شمولى نشوتى
ففى حانِ سكرى حانَ شكرى لفتية ... بهم تم لى كتمُ الهوى مع شهرتى

وفيها قوله (الديوان ص ٨٧) :

ولو أن مابى بالجبال وكان طو ... رُسيتا بها قبل التجلى لدُكت
هوىً عبرةٌ نمّت به وجوى نمت ... به حرقٌ أدواؤها بى اودت
نطوفان نوح عند نوحى كادمعى ... وابقاد نيران الخليل كلوعتى
ولولا زفيرى أغرقتنى ادمعى ... ولولا دموعى احرقتنى زفرتى
وحزنى ما يعقوب بث أقله ... وكلٌّ بلى أيوب بعض بليتى
وآخر ما لاقى الألى عشقوا الى الر ... ردى بعض ما لاقيت أول محنتى
فلو سمعت اذن الدليل تأوهى ... لآلام أسقام بجسمى أضرت
لأذكره كربى أذى عيش أزمة ... بمنقطعى ركب اذا العيس زمت

ومن قوله فى تائيته (الديوان ص ١٠١ ـ ١٠٢) :

جلت فى تجليها الوجود لناظرى ... ففى كل مرئى أراها برؤية
وأشهدت غيبى اذ بدت فوجدتنى ... هنالك اياها بجلوة خلوتى
وطاح وجودى فى شهودى وبنت عن ... وجود شهودى ماحيا غير مثبت
وعانقت ما شاهدت فى محو شاهدى ... بمشهده للصحو من بعد سكرتى
ففى الصحو بعد المحو لم اك غيرها ... وذاتى بذاتى اذ تجلت تجلت
فوصفى اذ لم تدع باثنين وصفها ... وهيئتها اذ واحد نحن هيئتى
فان دعيت كنتِ المجيب وان أكن ... منادى أجابت من دعانى ولبت
وان نطقت كنت المناجى كذاك ان ... قصصتُ حديثا انما هى قصت
فقد رفعت تاء المخاطب بيننا ... وفى رفعها عن فرقة الفرق رفعتى

وانظر من تائيته (الديوان ص ١١٢) الأبيات التى تبدأ بقوله :

مواطن افراحى ، ومربى مآربى ... واطوار أوطارى ، ومأمن خيفتى

الى قوله :ـ

فقد جمعت أحشاى كل صبابة ... بها وجوى ينبيك عن كل صبوة

ومما يمثل صنعة ابن الفارض الموسيقية قوله (الديوان ص ١٣٠) :

أذاد عن عذب الورود بأرضه ... وأحاد عنه وفى لقاه بقائى
وربوعه أربى اجل وربيعه ... طربى وصارف ازمة الأهواء
وجباله لى مربع ورماله ... لى مرتع وظلاله أفيائى
وترابه ندى الذكى ، وماؤه ... وردى الروى ، وفى ثراه ثرائى
وشعابه لى جنة ، وقبابه ... لى جنتى ، وعلى صفاه صفائى
حيا الحيا تلك المنازل والربى ... وسقى الولى مواطن الآلاء

(٥) وللغة الدينية أساليبها الخاصة فى **الرمز والمجاز** ؛ وكثير من تصويرها لو أخذ على ظاهره القريب لأوقع فى الغلط ، أو لم يحدث الأثر المقصود ؛ وهذا باب من أخطر الأبواب التى يمتحن بها المفسرون والفقهاء ؛ واعتماداً على ما فى لغة الدين من الرمز والمجاز توسع الباطنية وبعض الصوفية فى تفسير آيات من القرآن بحيث تلائم مذاهب خاصة ؛ ومن أوضح الأمثلة على هذا تفسير محيى الدين بن عربى لآيات قرآنية تفسيراً يؤيد مذهبه فى « وحدة الوجود » .

(٦) ومما تتصف به لغة الدين على وجه العموم أنها محافظة موغلة فى المحافظة، وأن ما يطرأ عليها من تعديل شىء جد طفيف ، وما يضاف اليها من وقت الى آخر شىء قليل نادر . ولا نعنى بذلك «الكلام» المضاف الى المعبود فهو بطبيعته مقدس، تحميه الجماعة أو تحاول أن تحميه من كل تغيير ؛ وانما نعنى الكلام الدينى المستعمل فى سائر المجالات الدينية فطبيعة « التقديس » تغلب عليه ولو كان من كلام البشر الذى لا يفترض الدين ابقاءه على صورة لفظية واحدة .

ومن تقديس الكلام الدينى أن الشعوب الاسلامية التى لا تتكلم العربية كالايرانيين والهنود والأندونيسيين والأتراك يرددون بعض عبارات دينية باللغة العربية .

وصفة التقديس وما تستتبعه من محافظة هى من أهم العوامل التى دعت الكنيسة القبطية فى مصر الى أن تحتفظ حتى اليوم باللغة القبطية فى كثير من طقوسها ومراسمها وعاداتها واحتفالاتها (كمراسم الزواج والممات . . الخ) مع جهل أكثر الأقباط الحاليين باللغة القبطية ، بل مع جهل بعض من يرددون هذه العبارات من رجال الدين بها .

ومن صفة التقديس أن المساس بالكلام الدينى مساسا غير لائق فى عرف الجماعة يؤدى بفاعله الى غضب ومقت ومصائب وأضرار ؛ وبعض ألوان هذا المساس قد يتغاضى عنه ، وينظر اليه على أنه شارة على طبقة وضيعة من الجماعة ، كلعنة الدين الجارية على ألسنة كثير من عامة المصريين « ينعل دينك » (= يلعن دينك). وربما كانت هذه العبارة فى أصلها بقية من العبارات المستعملة أيام تعدد

الأديان فى الجماعة ، وربما كان الأصل فيها سب أصحاب دين لأصحاب دين آخر . ومن ذلك عبارة « يا بن الذين آمنوا » وهى عبارة سب فى العامية المصرية ترجح لدينا أن الأصل فيها سب غير المسلمين للمسلمين ، لما كانت « الذين آمنوا » عبارة كثيرة التردد فى القرآن والحديث ، وربما يؤدى هذا الى فرض آخر هو أنها نبتت على ألسنة الأقباط المصريين سبّا لمن ترك دينه منهم الى الاسلام بعد الفتح العربى لمصر . ولا شك فى أن هذه العبارة وأمثالها يجب تعقب استعمالها تاريخيا للوصول الى أقدم استعمال لها والظروف المحيطة به حتى تفسر التفسير العلمى الصحيح . وهذه العبارة لا تختص الآن بسب أصحاب دين لأصحاب آخر بل يسب بها المسلم أخاه المسلم فقد تسمع فى مصر مسلما يقول لآخر : « اسكت يا بن الذين آمنوا » ! !

(٧) ومن جوانب **استعمال الكلام فى الشئون الدينية فى الاسلام** لغة الأذان ، والأدعية ، والصلوات ، وخطب الجمعة ، والأوراد ، والأذكار ، واللغة المستعملة فى الحج فى مراحله المختلفه ، كلغة السعى بين الصفا والمروة ولغة الطواف ولغة الرجم، ولغة الدعاء .

ومن ذلك اللغة المتصلة بالموت كالصلاة على الميت ، والكلام الذى يقال أثناء تشييع الجنازة ، وما يقال عند دفنه ، وبعده ، وفى التعزية وفى الشكر عليها . ومن العبارات المستعملة فى مصر فى مجال التعزية :

« البقية فى حياتك » ، « البقية فى دين محمد » ، « البركة فيك » « شكّر الله سعيكم » ، « أعظم الله أجركم » .

واللغة المستعملة فى عقد القران ، كتلاوة القرآن وكلمة « المأذون » ، وصيغة العقد ، وكلام المهنئين يبرز فيها طابع المحافظة ، والحرص على ترديد عبارات بعينها لتأدية وظائف خاصة .

وفى عبارات التهنئة فى كثير من اللغات لون دينى ومن ذلك فى مصر : (مبروك — مبارك — الله يبارك فيك الخ) .

ان دراسة اللغة المستعملة فى كل حال من هذه الاحوال كفيلة بأن تكشف عن

كثير من الحقائق اللغوية .

(٨) **ومن الملاحظ ان كثيراً من العبارات الدينية يجد سبيله الى السنة الجماعة في أحاديثهم العادية اليومية** ، وقد لا يتخلص من بعضها الملحدون منهم . وأشهر هذه العبارات يوجد في « **القسم** » فنحن نسمع في مصر بالعامية : وَاللهْ ـ والله ـ والله العظيم ـ وربنا ـ وِاللى خَلَقَكْ ـ وِالنَّبِى ـ وِحَيَاة النَّبى ـ وِشِبَّاكِ النبى ـ وِالمُصْطَفَى ـ وِالمُصْحَف ـ وِالمُصْحَف الشَّرِيف ـ وِالقُرْآن ـ وِالقُرْآنِ الكريم ـ وِالكعبة الشريفة وِالسَّيِّدَة زينب ـ وِسِيدْنا الحسين ـ وِالشَّرْسِى (من أبى العباس المرسى) وِسِيدى ياقوت العَرْشى (وهذان الأخيران كثيرا الاستعمال فى الاسكندرية) . ونسمع على ألسنة الأقباط : وِالنَّعَدْرَا ـ وِالصَّلِيب ـ والمسيح ـ وِستنا مريم ؛ ومن الملاحظ أنهم يتحاشون النطق بهذه الأقسام المسيحية أمام المسلمين ويستعملون فى حضرتهم « والله ـ والله العظيم الخ » .

والقسم بعبارات دينية خاصة هو الذى تستهل به شهادة الشاهد فى التقاضى ؛ ويستعمل بين جماعات كثيرة كوسيلة لفض المنازعات .

ومن الملاحظ أن القسم ـ والقسم بأساليب خاصة ـ يكثر على ألسنة النساء . وعلى الباحث أن يفرق بين ما يختص به الرجال وما يختص به النساء ، وما يشترك فيه الاثنان على حد سواء أو على خلاف فى الدرجة .

ومن العبارات الشائعة على ألسنة المسلمين المتكلمين بالعربية « لا حول ولا قوة الا بالله » ، و « استغفر الله » و « أعوذ بالله » و « اِتَّكِلْ على الله » .

ولغة السائلين جلها عبارات دينية وشعار دينية ؛ ومن عباراتهم المشهورة فى السؤال : لِلّه ـ أعطنا مما أعطاك الله ـ يا رب يا كريم ـ يا كريم ـ حسنة لله ـ شِى لله يا سيدى ـ شى لله يا أسياد . والرد على السائلين عند عدم اعطائهم من عباراته فى مصر : عَلَى اللّه ـ ربنا يِدِّيك ـ ربنا يرزقك ؛ وسمعت من ذلك فى ليبيا : ربنا ينتوب ربى يتوب ـ ينتوب .

ومما يكثر استعماله على ألسنة المصريات لأطفالهن الذكور فى ظروف خاصة : اِسْمِ

النَّبِى حَارِسَكْ وِصَايِنَكْ ـ اسم النبى حارسك ـ رَبَّنَا يْحَرِّسَكْ اُسْم اللّه عَلَيْكْ ـ ما شَاءَ اللّه . ويقولون فى ليبيا اظهاراً للاعجاب بطفل : « رَبِّى يِصُونْ » .

وقد تنتقل كثير من العبارات الدينية الى **لغة الغزل والتعريض بالنساء** ، ومن ذلك فى العامية المصرية :

يا دِينِ النَّبِى ! ـ اِسْمَ اللّه ! اِسْمَ اللّه عَلِيكِ ! ـ اسم الله عليها وعلى مَعْنِيِّتِهَا ! ـ يا جَمَالِ النَّبى !

وكلام « المبخرين » و « المنجمين » يقوم أكثره على عبارات دينية ؛ فالمبخر المصرى يقول وهو يعطر المكان ببخوره :

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى النَّبِى ـ اِلْفَاتِحَه لِلنَّبِى الخ .

ومن الملاحظ فى أكثر البلاد الاسلامية **استهلال كثير من الكتب والخطب والأعمال** بعبارة : ,, بسم الله الرحمن الرحيم ،، . كما ترتل فى افتتاح كثير من الاحتفالات غير الدينية (كالاحتفالات بافتتاح أبنية أو معاهد) آيات من القرآن الكريم .

(٩) ومن جوانب دراسة الكلام الدينى دراسة **ما يقوله أصحاب دين عن أصحاب دين آخر** ، وخاصة ان كان هؤلاء وأولئك ينتمون الى نفس الجماعة ، ككلام المسلمين المصريين عن الأقباط ودينهم ، وكلام الأقباط عن المسلمين ودينهم .

ومما يلاحظ أن الأقباط ، لهذه الأيام ، يتحرجون فى الأغلب من ذكر العبارات الدينية المسيحية على ألسنتهم أمام المسلمين ، ولو كانت من أساليب القسم . كما أنهم يتحاشون بصفة عامة الرد على تحية المسلمين لهم « السلام عليكم » ؛ « وعليكم السلام » لأنها تحية الاسلام ، ويردون قائلين « سَعِيدَه » ، أو « مع السلامة » ، أو « نهارك سعيد » ، أو ما أشبه ذلك من عباراتهم ، بينما يستعمل المسلمون المصريون بعض أساليب التحية التى يصطنعها الأقباط .

(١٠) ومما يتصل بدراسة لغة الدين دراسة **كلام الصوفية والزهاد والرهبان** ، كلامهم الخاص برياضاتهم النفسية وأحوالهم الدينية ؛ وكلامهم فى سائر الشئون بما فيها الشئون الدينية . ومن المعروف أن للصوفية ، على الخصوص ، رموزا كلامية قاصرة عليهم .

(١١) ودراسة **كلام النبيئين والزنادقة والملاحدة** عنصر من أهم عناصر دراسة اللغة الدينية .

(١٢) **والمواسم الدينية** — كالاحتفالات بمولد الرسول ، ومواليد « الأولياء » ، وعاشوراء ، وليلة القدر ، وشهر رمضان ، والعيدين — كلامهما الخاص ، بل ان كلا من هذه وأشباهها لينفرد بكلام .

(١٣) وثمة مجال كبير لدراسة لغة الحياة الدينية يتمثل فى دراسة **الكتابات عن الدين وما يتعلق به** ، كدراسة اللغة المستعملة فى الفقه ، والحديث ، والتفسير ، وعلم الكلام . ومن واجب الباحث اللغوى كذلك أن يبين ما تلجأ اليه الفلسفة الدينية من أساليب الحجاج دفاعا عن مذهب وهجوما على آخر ، واثباتا لقضايا الدين ، وردا على المنكرين . . الخ ، وأن يدرس تطور ذلك كله وأشباهه على مر العصور .

الكلام المحرم[1]

(١) **لا يخلو مجتمع انسانى من تحريم موضوعات معينة ومن تجنب وتقنيع بعض العبارات والكلمات المتعلقة بهذه الموضوعات** . والبحث فى هذه العبارات والكلمات التى يتجنبها ويقنعها المتكلمون بلغة من اللغات يتعلق بأمور منها جمع العبارات والكلمات التى يصطنعونها بديلا مما يتجنبونه وجمع تلك التى يقنعونها ، وتحليل ذلك كله ، ومحاولة الوصول الى الأصول البعيدة والقريبة فى حياة المجتمع ، هذه الأصول الداعية الى هذا التجنب وذاك التقنيع .

وما تجنب كلمات وتقنيع أخرى أمرا قاصرا على من يسمون بالشعوب الوحشية أو البدائية أو الفطرية بل انه ماثل فى كل المجتمعات أيا كانت درجتها من المدنية . وما من شك فى أن كثيرا من دواعى تجنب بعض العبارات والكلمات واخفائها راجع الى التوراث ؛ وفى أن الأغلب أن سببها البعيد كان الخوف من بعض القوى غير المنظورة كالأرواح وطائفة من المقدسات عندما كان يظن أنها تتصرف فى حياة الناس وأنها قادرة على أن توقع بهم الضر ؛ واستمر أثر هذا الخوف القديم قائما فى نفوس أكثر البشر . كما أن الاعتقاد القديم بأن لبعض كلمات اللغة قوة سحرية ذو دخل كبير فى هذا الشأن .

ومن التعسف أن يحاول الباحث تفسير جميع ما يتجنبه ويقنعه مجتمع من المجتمعات من كلمات وعبارات بعوامل مستقاة من الحالة الراهنة لهذا المجتمع فلا شك فى أن جانبا من هذه العبارات والكلمات المرد فى تجنبه وتقنيعه الى عوامل قديمة متوارثة قد لا يكون من اليسير تعقبها وتحديدها على وجه اليقين ؛ ولكن ما من شك فى أن جانبا من هذه العبارات والكلمات المرجع فى تحريمه الى عوامل قائمة فى هذه المرحلة من مراحل تطور المجتمع .

ومن الملاحظ أن **كثيرا من المجتمعات يشترك فى تحريم كلمات وعبارات متعلقة بموضوعات معينة كالموت ، والأمراض الخطيرة والخبيثة ، والأرواح لا سيما**

---

(1) Taboo

الشريرة ، وبعض الوظائف الفسيولوجية للجسم الانسانى وشىء مما يتصل بها من اعضاء . فكثير من الشعوب تستعمل عبارات لبقة بارعة تجنبا لاستعمال الكلمتين البسيطتين « يموت » و « يمرض » ، ففى الانجليزية مثلاً يستعمل بدلاً من الكلمة المقابلة ! « يموت » كنايات مثل passing on أو passing away أو being taken away . [١]

والعربية الفصحى فى الوقت الحاضر — وفى اعلانات النعى على وجه الخصوص — تتجنب كلمة « مات » وتستعمل موضعها « تتوفى الى رحمة الله » أو « توفاه الله » أو « أسلم الروح » أو « ذهب الى جوار ربه » الخ ؛ كما أنه يُدل فيها على «مات» بـ « قضى » أو « قضى نحبه » أو « رحمه الله » . وفى العامية المصرية قد أجيب سائلاً يسألنى عمن لا يعلم أنه مات بقولى « البقية فى حياتك » ، أو « الله يرحمه » .

ويتحرج كثير من الأمهات المصريات من ايراد كلمة « الحصبة » على ألسنتهن ويستعملن بدلاً منها « المبروكة » ! والسل من الأمراض التى تكنى عنه كثير من اللغات بالاشارة الى شدة السعال والبصق وضعف الصدر وغير ذلك .

والخوف من « الجن » و « الأرواح » و « الشياطين » و « العفاريت » غالب على معظم الشعوب . والمصريون لا سيما النساء يدلون على الجن بـ « الأسياد » ، كما يدلون عليهم أحيانا بـ « الاخوات » اشارة الى الاعتقاد السائد بأن لكل من الانس أخا من الجن ؛ وهم عندما يتوهمون أنهم قد يدوسون أحداً من الجان أو قد يقتحمون عليه موضعه يقولون مستأذنين « دَستورَكم يا مَبارَكين » ؛ كما يشيرون الى « العفاريت » أحيانا بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » .

ان كثيراً من المجتمعات — أو كثيراً من الأشخاص فى كثير من المجتمعات — لا يزال يخشى ما كان يخشاه كثير من المجتمعات الانسانية القديمة من حلول الشر والضر نتيجة للتصريح بكلمات وعبارات تدل على الشر والضر كالموت والأمراض والشياطين . ومن مظاهر هذا تلك العبارات التى تطلقها المصريات لو لفظ أمامهن — ولو على سبيل الحكاية عن غريب — باسم مرض خطير كالسل أو الحمى «الشر بره وبعيد !»

---

(١) Margaret Schlauch : The Gift of Tongues, p. 279.

أو « صَلّى عَ النَّبى ! » أو « تِفْ مِنْ بُقَكْ ! » أو « اللهم احفظنا ! » .

والعملية الجنسية ، وأعضاء الذكورة والأنوثة ، والحيض ، والتبرز والتبول يوجد لها فى كثير من اللغات كنايات تفادياً للتصريح بأسمائها ؛ وقد يكون شىء من ذلك من قبيل التأدب لا قبيل الخوف .

(ب) « اللائق » و « غير اللائق » من الكلام

ويتصل بموضوع « الكلام الحرام » تلك العبارات والكلمات التى يعدها مجتمع من المجتمعات « غير لائقة » فى مجالات خاصة ، والتى يرى فى النطق بها جفوة أو غلظة ، أو سوء أدب ، أو ما هو من ذلك بسبيل .

ومقاييس « اللياقة » و « عدم اللياقة » فيما يتعلق باللغة تختلف باختلاف العصور ؛ وهى فى كل عصر تختلف باختلاف الطبقات الاجتماعية فى المجتمع الواحد، وباختلاف اللهجات المحلية ؛ كما يشترك فى تحديدها عوامل أخرى كثيرة : فانه يسوغ بين جماعة من الذكور أو بين جماعة من الاناث النطق بعبارات وكلمات ولا يسوغ نطقها لو ضم المجلس شخصاً أو أكثر من الجنس الآخر ؛ وبعض ما يتكلمه الرجل وزوجته حال انفرادهما لا يستعمله أحدهما أو كلاهما فى ظروف أخرى ؛ وقد ينصح الصغار بتجنب عبارات وكلمات لا يكون فى تفوه الكبار بها غضاضة ؛ وقد يؤذن للرجال بنطق ما لو نطقت به النساء لكان غير لائق ، كما يؤذن للنساء بنطق ما لو نطق به الرجال لعد غير سائغ ؛ ويقع فيما يدور بين المريض وطبيبه من حديث كلمات وعبارات لا يوردها كل منهما على لسانه فى مجالات أخر .

ان مقاييس اللياقة وعدم اللياقة فى المجتمع الكلامى الواحد متعددة ومعقدة ، ومما يزيد البحث فيها صعوبة أنها تتداخل أحياناً مع ما ذكرناه من اعتبارات الخوف الداعية الى التحريم والتقنيع .

وهذه المقاييس متطورة بطبيعة الحال ؛ وعلى الباحث أن يستقصى العوامل المغيّرة لها ، وأن يبحث عن آثارها اللغوية . ومن أهم هذه العوامل انتقال المجتمع من الفصل بين الذكور والاناث الى اباحة الاختلاط بينهم ، فكثير مما كان غير لائق فى الحالة الأولى يرى عاديا فى الحالة الثانية . والملاحظ أن ما نالته المرأة فى

المجتمعات المتحررة المختلطة من استقلال اقتصادى ، وتقدم فى التعليم ، وسعة أفق فى التفكير قد أسهم فى تحرير كلامها ، وفى تخليصه من كثير من الصفات الأنثوية ؛ ومن ذلك أن كلمة Legs لا يحمر لها وجه الانجليزية خجلاً كما كان يحدث لجدتها فى عصر سابق[1] .

(1) Ibid, p. 280.

الضمائر والمستويات الاجتماعية

(١) يُظهر الكلامُ المستويات الاجتماعية لأصحاب لغة من اللغات بأكثر من صورة ومن أهم هذه الصور فى كثير من اللغات تصرف **الضمائر والصيغ « المسندة الى ضمائر »** . واللغات فى هذا الشأن متفاوتة فمنها ما لا يفصل ولا يميز فى الضمائر كبير تفصيل وتمييز للتعبير عن المستوى الاجتماعى للمتكلم والمخاطب والغائب ؛ ومنها ما يميز شيئاً من التمييز فى ضمائر الخطاب على وجه الخصوص ؛ ومنها ما يبلغ باستعمال الضمائر درجة كبرى من التفصيل والتمييز والتعقيد فيتغير كل من ضمير المتكلم والمخاطب والغائب حسب درجة المتكلم فى السلّم الاجتماعى من المخاطب والغائب .

(٢) وبنا قبل أن نشير الى ما تجرى عليه **العربية الفصحى** فى هذا المجال أن نزيل وهما من الأوهام قد يكون سببه احساس المتكلم بالعربيـــة ودارسهـــا على الطريقة التقليدية بأنها حريصة ، بصفة عامة ، على التمييز بين المذكر والمؤنث ، وعلى ربط كل من هذين بعدد معين « مفرد » ، أو « مثنى » ، أو « جمع » . قد يظن أن الضمائر يراعى فيها هذا اللون من التمييز ، ولكن الاستقراء يظهر أن هذا التمييز لا يتحقق فى حالة الضمائر كاملاً بيّنا ، كما أنه يظهر أن الضمائر اذا نظر اليها باعتبار التكلم والخطاب والغيبة لا تتفق جميعا فى خصائص واحدة بل يتميز كل منهـــا بصفات . وهذا شاهد بخطأ القول بأن لكل لغة « نظاما » واحداً تسير عليه جميع «أقسامها»، فالحق أننا نجد فى كل لغة مجموعة من الأنظمة ، كما قد نجد فى النظام الواحد تفريعات كثيرة أو قليلة .

فاذا نظرنا فى **ضمائر التكلم والصيغ « المسندة الى ضمائر التكلم »** فى العربية وجدنا أنه لا تمييز فى حالة المفرد بين المذكر والمؤنث (فانه يقال : أنا ــ كتبتُ ــ أكتبُ ــ فلأكتبْ ــ كتابى ــ لى ــ انى ــ اياى الخ فى حالتى التذكير والتأنيث) وأنه لا تمييز بين « المثنى » و « الجمع » وفى كل حالة بين ما هو مذكر ومـــا هو مؤنث ، بل هناك مجموعة من الضمائر والصيغ كل منها يستعمل لكـــل من المثنى

والجمع بنوعيهما (نحن ــ كتبنا ــ تكتب ــ فلتكتب ــ كتابنا ــ لنا ــ انا ــ ايانا الخ) . ونستطيع ان نقول ان العربية ــ بهذا الاعتبار ــ تسوّى شيئا من التسوية بين المتكلم والمتكلمة ، كما أنها تلغى بعض الفوارق بين المتكلمين والمتكلمتين والمتكلمينَ والمتكلمات .

أما فى **ضمائر الخطاب والصيغ المسندة الى ضمائر الخطاب** فالعربية الفصحى تميز بين المفرد والمثنى والجمع ، وهى تميز فى كل من المفرد والجمع بين المذكر والمؤنث ، ولكنها فى حالة المثنى المخاطب لا تميز بين مذكر ومؤنث (انظر الجدول التالى) .

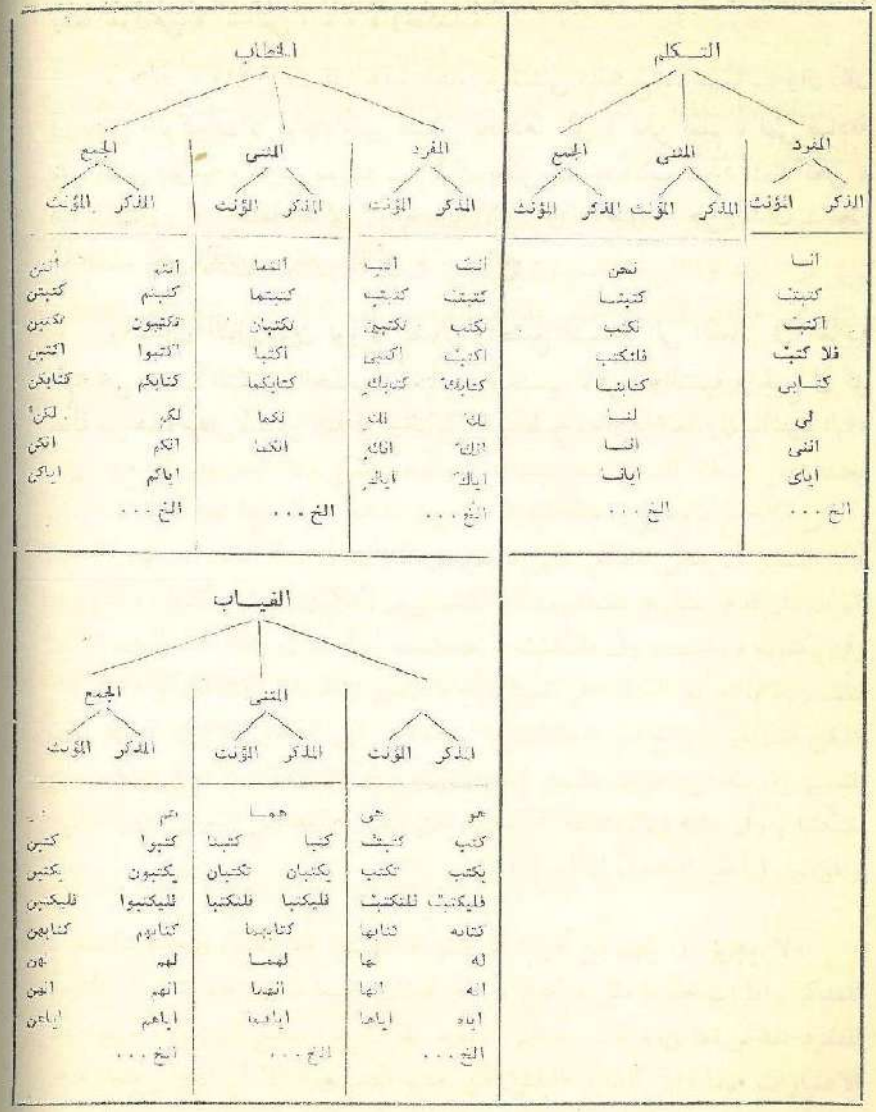
أما **ضمائر الغياب والصيغ المسندة الى ضمائر الغياب** فانها تظهر شكلاً آخر يختلف عن ضمائر التكلم وعن ضمائر الخطاب : فهى أولاً تميز بين كل من المفرد والمثنى والجمع ، وهى فى حالة المفرد تميز بين ما هو مذكر وما هو مؤنث ، ولكن هذا التمييز فى بعض الصيغ يتأتى عن طريق تغيرات فى بنية الكلمات جرى النحاة العرب على عدم اعتبارها ضمائر وذلك كالتمييز بين المذكر والمؤنث فى كَتَبَ وكَتَبَتْ ، وفى يكتبُ وتكتب ، وفى فليكتبْ و فلتكتبْ . أما فى حالة الغائبين الاثنين فصورة ما جرى العرف على تسميته بالضمير واحدة لكلا المذكر والمؤنث ، ولكن صور أنواع من الكلمات « المسندة » الى الغائبين الاثنين يلحقها تغيير للتمييز بين المذكر والمؤنث مثل كتبا وكتبتا ، ويكتبان وتكتبان ، و فليكتبا و فلتكتبا ؛ وفى حالة ضمائر جماعة الغائبين تراعى العربية الفصحى التمييز بين المذكرين والمؤنثين (انظر الجدول التالى) .

ولا يجوز أن يفهم من قولنا أن صورة الضمير قد تكون واحدة بالنسبة للمذكر والمؤنث جميعا مثل « أنا » ، أو للمثنى جميعا مثل « هما » ، أن « أنا » للمفرد المذكر تطابق « أنا » التى للمفرد المؤنث من جميع الوجوه وبجميع الاعتبارات فهما وان كانتا متطابقتين من حيث الصورة الا أن الأولى متميزة من الثانية من حيث الوظيفة ومن حيث علاقاتها بسائر الكلم فى التعبيرات التى تقع فيها ؛ فانه وان صح لكل من محمد وزينب أن يقول « أنا أعلم » الا أن محمداً يقول « أنا كريم » وتقول زينب « أنا كريمة » ، وهو يقول « أنا الذى . . . »

بينما تقول هى « أنا التى . . . » وهكذا .

و « نحن » وان كانت على هذه الصورة للمثنى والجمع بنوعيهما ــ وان كان فى بعض التركيبات لا يوجد مميز شكلى يحددها مثل « نحن نعلم » فهى صادقة على المثنى بنوعيه والجمع بنوعيه ــ الا أن بعض الاستعمالات تحدد أن « نحن » هنا للاثنتين ، أو لجماعة الذكور أو لجماعة الاناث وذلك مثل « نحن اللذان ــ نحن اللتان ــ نحن الذين ــ نحن اللائى » . . الخ .

والجدول التالى يبين توزع الضمائر والصيغ المسندة الى الضمائر فى العربية الفصحى حسب التكلم والخطاب والغياب ، وحسب الافراد والتثنية والجمع فى كل حالة من هذه وعلى أساس التذكير والتأنيث . ويتضح من هذا الجدول ما أشرنا اليه .



(٢) ونشرع الآن فى عرض تخطيط عام لدراسة الضمائر فى **العربية الفصحى من حيث اظهارها المستوى الاجتماعى المتكلمين والمخاطبين والغائبين** . ومن أوجب بنا على الباحث فى هذا الموضوع أن يدرس هذه الدلالة للضمائر فى كل عصر على حدة ، وأن يدرسها فى كل فن من فنون القول وفى كل وظيفة من الوظائف الكلامية على حدة ؛ وأن يراعى فى كل حالة سياق الكلام والوضع الاجتماعى للمتكلم بالنسبة الى المخاطب والغائب و ... الخ ؛ فمن الخطأ أن نستدل باستعمال الضمير استعمالاً خاصاً فى العصر الحديث على أن « العربية » تذهب هذا المذهب أو ذاك ؛ كما أنه من الخطأ أن نستخلص من دلالة خاصة للضمير نجدها فى شعر عصر من العصور أن هذه الدلالة تصدق على الضمير فى كل العصور وفى كل وظائف الكلام ، وأنها «لازمة» للأسلوب العربى وقد تظل على هذه الدلالة فى المستقبل كذلك .

١ — ان استخلاص الدلالة الاجتماعية للضمائر **فى العصر الجاهلى** تستلزم أن نميز بين أنواع كلامية بينة الاختلاف فندرس ذلك فى الشعر مستقلاً ، وفى الخطب مفردة ، وفى الأمثال على حدتها ، وفى كل من الوصايا والحكم وحده ، وفى الكتابة وحدها على ندرتها ، وفى لغة التخاطب العادى اذا صحت لنا نصوص فى هذا المجال . وقد يستوجب الأمر تفريعات خاصة بكل قسم من هذه الأقسام . والقراءة السريعة لنصوص العصر الجاهلى تؤدى بنا الى القول بأن عربية هذا العصر كانت تدل على المستويات الاجتماعية عن طريق الأسلوب العام واختيار الكلمات أما الضمائر والصيغ المسندة الى ضمائر فلم يكن يلحقها تغيير .

---

(١) أمثلة من الشعر : قول النابغة فى مدح النعمان والاعتذار اليه مع اشارة الى « الوشاة » ولا تتغير فى ذلك كله ضمائر التكلم والخطاب والغياب :

أتانى — أبيت اللعن — أنك لمتنى ... وتلك التى تستك منها المسامع
مقالة ان قد قلت : سوف أنالـه ؛ ... وذلك من لقـاء مثلك رائـع
لعمرى — وما عمرى على بهين ... لقد نطقت بطلا على الأقـارع
أقارع عوف ؛ لا أحـاول غيرها ... وجوه قرود تبتغى من تجـادع
أتاك أمرؤ مستبطن لى بغضـة ... له من عـدو مثل ذلك شـافع
أتاك بقول هلهل النسـج كاذب ... ولم يأت بالحق الذى هو ناصـع
أتـاك بقـول لم أكن لأقـوله ... ولو كبلت فى ساعدى الجوامع

وفى آخر القصيدة :

اتوعّد عبدا لم يخنك امانة ... ويترك عبدٌ ظالم وهو ضالع
وانت ربيع ينعش الناسَ سيبُه ... وسيفٌ أعيرتهُ المنيةُ قاطع
أبى الله الا عدلَه ووفاءه ... فلا النكرمعروف ولا العرف ضائع
وتسنقى اذاما شئتَ غير مُصَرَّد ... بزوراء ، فى حافاتها المسك كانع

ومن أبيات لدريد بن الصمة وفيها حديث عن قومه وموقفه منهم وموقفهم منه ومن اخيه وامه ، ورثاء لأخيه ؛ ولا تغيير فيها للضمائر أو للصيغ المسندة الى الضمائر لاظهار هذه المستويات المختلفة :ـ

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى ... فلم يستبينوا النصحَ الا ضحى الغد
فلما عصونى كنت منهم وقد أرى ... غوايتهم انى بهم غير مهتد
وهل أنا الا من غزية ؟ ان غوت ... غويت وان ترشد غزية أرشد
دعانى اخى ، والخيل بينى وبينه ... فلما دعانى لم يجدنى بقعدد
أخ ارضعتنى أمه من لبانها ... بثدىٍ صفاء بيننا لم يُجَدَّد
نجَتْ اليه ، والرماح تنوشه ... كوقع الصَّياصى فى النسيج الممدّد
وكنت كذات البو ريعت فأقبلت ... الى قطع من جلد بو مُجلّد
فطاعنت عنه الخيل حتى تنهنهت ... وحتى علانى حالك اللون اسود
فقال امرىء آسى أخاه بنفسه ... وبعلمُ أن المرء غير مُخلّد
تنادوا فقالوا أردت الخيل نارسا ... فقلت : اعبدُ الله ذلكم الرَّدى ؟
فان يك عبد الله خلى مكانه ... فما كان وقافا ولا طائش اليد

ومن مخاطبة عظيمين قول زهير :ـ

يمينا لنعم السيدان وجدتما ... على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبسا وذبيان بعدما ... تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما ان ندرك السلم واسعا ... بمال ومعروف من الامر نسلم
فأصبح يجرى فيهم من تلادكم ... مغانم شتى من افال المزتم

ولا نظن أن الضمير فى « تلادكم » القصد منه تعظيم هذين السيدين انما الأقرب اشارة الى العشيرة .

ومن للحديث عن الصاحبة ومخاطبتها قول عنترة :ـ

بكرت تخوفنى الحتوف كأننى ... أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

فأجبتها ان المنية منهل ... لا بد أن أسقى بكأس المنهل
فاقنى حياءك لا أبالك واعلمى ... أنى امرؤ سأموت ان لم أقتل

والضمائر والصيغ المسندة الى ضمائر فى **الخطب والأمثال والحكم والوصايا** لا تظهر تغييراً بتغير المستويات الاجتماعية : لاحظ الضمائر فى خطبة قس بن ساعده الإيادى المشهورة (أيها الناس ! اسمعوا وعوا ؛ انه من عاش مات ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . . الخ) وفى حكمه : (. . ولاتشاور مشغولاً وان كان حازما ، ولا جائعا وان كان فهما ، ولا ملهوراً وان كان ناصحا) .

ومن خطبة منسوبة الى عمرو بن معد يكرب الزبيدى يقال انه ألقاها امام كسرى أنو شروان يخاطبه فيها : (. . . فاجتبد طاعتنا بلفظك ، واكتظم بادرتنا بحلمك ، والِنْ لنا كنفك يلن لك قيادتنا . فانا الناس لم يؤرقنّ صفاتنا قراعُ مناقير من أراد لنا قضما ، ولكن منعنا حمانا من رام لنا هضما) .

ومن الأمثال الجاهلية :

(ان كنت ريحا فقد لاقيت اعصارا) و (ذكرنى فوك حمارَىْ أهلى)

و (انحشأ لقمان من غير شبع) يضرب لمن يدعى ما ليس يملك . وفى لغة الوصايا المنسوبة الى الجاهلية من والد الى بنيه، أو ابنه أو من والدة الى ابنتها أو ابنها لا تتغير الضمائر والصيغ المسندة الى ضمائر ومن ذلك الوصية المنسوبة الى زهير بن جناب الكلبى يوصى فيها أبناءه (يا بنىَّ قد كبرت سنى، وبلغت حُرْسامن دهرى، فأحكمتنى التجارب ، والأمور تجربة واختبار . فاحفظوا منى ما أقول وعوه ، اياكم والخور عند المصائب والتواكل عند النوائب . . . الخ)

ب — **أما فى صدر الاسلام** فسنجد أن من الواجب دراسة استعمال الضمائر والصيغ المسندة الى ضمائر فى القرآن وحده وفى الأحاديث النبوية وحدها ، وفى خطاب كل من المؤمنين والكافرين للرسول ، وفى رسائل النبى والخلفاء الى الملوك والأمراء والعمال وحدها ، فضلاً عن دراستها فى فنون القول الأخرى من شعر ونثر .

وفى لغة القرآن نميز بين المواضع التى يتكلم فيها الله تعالى باسمه ، من تلك التى يتحدث فيها عن نفسه بضمير الغيبة ، كما نفرد خطابه للرسول من خطابه المؤمنين ومن خطابه الكفار ، ومن حديثه عن أولئك جميعا ، ونفصل خطاب المؤمنين له ، من خطاب الكفار له ، ومن خطاب الرسول اياه .

وسنلاحظ فى **تكلم الله جل وعلا باسمه** أنه يستعمل أحيانا ضمير المتكلم المفرد وأحيانا ضمير جماعة المتكلمين ، ومن الواجب ربط كل ذلك بظروفه وتفسير الاختلاف فى استعمال الضمير والاستعانة بما كتبه المفسرون وعلماء البلاغة فى هذا الشأن :

ومن تكلم الله جل وعز باسمه بضمير الجمع قوله تعالى : (ان الينا ايابهم ثم ان علينا حسابهم . «سورة الغاشية») وقوله : (لقد خلقنا الانسان فى كبد . «سورة البلد») وقوله : (ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين . « سورة البلد ») وفى نفس السورة : والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة)[1] .

---

(١) ومن ذلك :

(انا أنزلناه فى ليلة القدر)

(انا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر ان شانئك هو الأبتر) .

وفى سورة المطففين (اذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الاولين)

وفى سورة التين : (لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين) .

وفى سورة النبأ : (الم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا ، وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا ، وبنينا فوقكم سبعا شدادا ، وجعلنا سراجا وهاجا ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات الفافا) وفى نفس السورة (انهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا . وكل شىء أحصيناه كتابا فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا) وفى السورة نفسها (انا انذرناكم عذابا قريبا) .

ومن تكلم الله عز وجل باسمه بصيغة المفرد قوله تعالى فى سورة الفجر (يأيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) . وفى سورة الليل آيات يستعمل فيها ضمير جماعة المتكلمين وفى آخرها آية يستعمل فيها ضمير المفرد المتكلم :

(فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وما يغنى عنه ماله اذا تردى . ان علينا للهدى وان لنا للآخرة والأولى . فأنذرتكم نارا تلظى لا يصلاها الا الأشقى الذى كذب وتولى . . .) .

وفى سورة الأعلى يتكلم الله بضمير جماعة المتكلمين ثم يشير الى ذاته بضمير المفرد الغائب لا بضمير الغائبين ثم يعود الى الكلام بضمير جماعة المتكلمين (سنقرئك فلا تنسى الا ما شاء الله انه يعلم الجهر وما يخفى ، ونيسرك لليسرى) .

والله تعالى يشير الى ذاته فى القرآن مصطنعا ضمير المفرد الغائب ومسندا الصيغ الى المفرد الغائب ولا نجد آية من الآيات يشير فيها الله الى ذاته بضمير جماعة الغائبين أو باسناد الصيغة الى جماعة الغائبين ومن ذلك ما ورد فى الآية السابقة وما نجده فى هذه الآيات من سورة عبس : (قتل الانسان ما أكفره ، من أى شىء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم اذا شاء أنشره ، كلا لما يقض ما أمره)[1] وان كنا نلاحظ أنه بعد هذه الآيات مباشرة أخذ الله فى التكلم باسمه بضمير جماعة المتكلمين : (فلينظر الانسان الى طعامه انا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا وعنبا . . الخ) .

نرى من هذا أن الله يتكلم باسمه مصطنعا ضمير جماعة المتكلمين مرة ، ومصطنعا ضمير المتكلم المفرد مرة ، ولكن التعظيم واعلاء الشأن لم يمثلا مرة فى

---

(١) ومن الأمثلة الشبيهة بهذا قوله تعالى : (قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) وقوله تعالى (لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) و (سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى . « سورة الأعلى ») . و (انه هو يبدىء ويعيد ، وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد . « سورة البروج »)

القرآن ، ولا فى غير القرآن ، باستعمال ضمير المتكلمين الاثنين ، وقد يعترض على هذا بأن ضمير المتكلمين يطابق فى الصورة ضمير المتكلمين الاثنين والرد على هذا أن بعض السياقات تحدد أن المقصود بالضمير هو ضمير جماعة المتكلمين كما يتضح ذلك من قوله تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » . كما أننا نرى مما تقدم أن القرآن لا يستعمل ضمير جماعة الغائبين أو الصيغ المسندة الى جماعة الغائبين عند الاشارة الى الله جل شأنه ، ولا ضمير الغائبين الاثنين أو الصيغ المسندة الى الغائبين .

أما خطاب المؤمنين لله ودعاؤهم اياه فنجد أن القرآن يستعمل فيه ضمير المخاطب المفرد ومن أشهر الأمثلة على ذلك فاتحة الكتاب (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين)[1]

ومن ذلك قوله تعالى « وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ، ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين » (الأعراف آية ١٢٦ ـ قصة موسى وفرعون والخطاب فى « تنقم » لفرعون)

وأما خطاب الله للمؤمنين وحديثه عز وجل عنهم فهو مثل خطابهم اياه لا يستعمل فيها الا الضمائر المفردة كذلك . ومن أمثلة خطاب الله للمؤمنين وحديثه عنهم قوله تعالى فى سورة الأنفال (آيات ١٥ ـ ١٧) :

« يأيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير . فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا ان الله سميع عليم . » وقوله تعالى فى الأنفال آية ٧٢: « ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ، والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا ، وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم

---

(١) تجد فى شعر أمية بن أبى الصلت الثقفى بيتاً يدعو فيه الله بضمير المخاطب المفرد :

لـك الحمد والنعماء والملك ربنا
فلا شىء اعلى منك مجداً وأمجد

ميثاق والله بما تعملون بصير » .

ومن حديث الله عن المؤمنين : (لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا « سورة النبأ ») .

وننتقل الآن الى الضمائر والصيغ المسندة الى ضمائر التى يستعملها القرآن فى الكلام عن العلاقة بين الله عز وجل وبين الكفار .

أما **خطاب الكفار لله** فتستعمل فيه صيغة المفرد فى الأغلب وصيغة الجمع أحيانا . وأمثلة هذا النوع قليلة فى القرآن ومنها :

« وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل ، أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال . » (ابراهيم آية ٤٤) ومنها : « ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ، ربنا ابصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون » (السجدة آية ١٢)[1]. ومنها قوله تعالى « حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون » (المؤمنون آية ٩٩) .

وأما **خطاب الله للكفار** فأمثلته فى القرآن كثيرة نكتفى منها بقوله تعالى :

« فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا (سورة النبأ آية ٣٠) . وهذا الخطاب تستعمل فيه الضمائر والصيغ المادية .

وحديث الكفار عن الله يمثله قوله تعالى :

« ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين » (البقرة آية ٢٦) . « أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه . . . . . فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير » (البقرة آية ٢٥٩)

---

(١) ومن أمثلة هذا النوع : «وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والانس نجعلهما تحت اقدامنا ليكونا من الأسفلين » (فصلت آية ٢٩) و : « . . . ويوم يناديهم اين شركائى قالوا آذناك ما منا شهيد » (فصلت آية ٤٧ و« قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين . ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون (المؤمنون ١٠٦ ـ ١٠٧) .

وفى الحديث عن عاد وثمود قال تعالى : « اذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا الا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فانا بما أرسلتم به كافرون » (فصلت آية ١٤) .

اما حديث الله عن الكفار فمن امثلته :

« ان جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا لابثين فيها احقابا . لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا الا حميما وغساقا جزاء وفاقا انهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا » . (سورة النبأ) .

ومن رواية القرآن لكلام الكفار قوله تعالى :

« يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا » (النبأ) .

وقوله تعالى رواية لكلام الكفار (يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة أئذا كنا عظاما نخرة . قالوا تلك اذن كرة خاسرة ((النازعات))) .

والقرآن عندما يخاطب الرسول يخاطبه بصيغة المفرد ومن ذلك : « يس ، والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم)

و « والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك وما قلا وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى ألم يجدك ... الخ . »

ومن خطاب الله لرسوله وطلبه اليه أن يقول كلاما: «قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولى دين » .

والقرآن عند ما يتحدث عن الرسول فهو يتحدث عنه بصيغة المفرد « والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى ... الخ .» و «عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى» . (سورة عبس) .

حـ ـ واذا انتقلنا **الى الحديث النبوى وجدنا أن الرسول** يتكلم بصيغة المفرد دون تغيير ، ويخاطب المؤمنين والكفار على حد سواء مستعملاً الضمائر العادية ، كما أن كلام الناس من مشركين ومؤمنين للرسول لا يظهر فيه استعمالات خاصة للضمير أو للصيغ المسندة الى ضمائر .

ومن حديث الرسول (صلعم) عن نفسه :

« ان الرائد لا يكذب أهله . والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم . والله الذى لا اله الا هو انى لرسول الله اليكم

حقا والى الناس كافة . . . . . وانكم لأول من أنذر بين يدى عذاب شديد .»[1]

والناس على اختلاف طبقاتهم كانوا عندما يخاطبون الرسول يخاطبونه مستعملين صيغة المخاطب المفرد ، واذا تحدثوا عنه تحدثوا بصيغة الغائب المفرد ، ولا يستعملون فى جميع ذلك صيغ تكلم خاصة بهذا السياق . والأمثلة النثرية على هذا كثيرة فى كتب الحديث ، ومن الأمثلة الشعرية قول قتيلة أخت النضر بن الحارث :

أمحمد ولدتك خير نجيبة ... فى قومها والقوم فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما ... من الفتى وهو المغيظ المحنق
فالنضر أقرب من قتلت قرابة ... وأحقهم ان كان عتقا يعتق
لو كنت قابل فدية لفديته ... بأعز ما يغلى به من ينفق [2]

ومن الحديث عن الرسول قول كعب بن زهير

أتيت رسول الله اذ جاء بالهدى
ويتلو كتابا كالمجرة نيرا

وقول حسان بن ثابت يخاطب أبا سفيان من سادات قريش ويتحدث عن الرسول :ـ

هجوت محمداً فأجبت عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء
فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء

ء ـ واذا نظرنا فى **كلام الخلفاء الراشدين** ، عن أنفسهم وفى

---

(١) وفى خطبة الرسول الجامعة فى حجة الوداع أمثلة كثيرة على حديثه عن نفسه بصيغة المفرد : (. . . واشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، وأستفتحكم بالذى هو خير ، أما بعد اسمعوا منى أبين لكم فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا . . . .) .

(٢) ومن ذلك قول كعب بن زهير :ـ

مهلاً هداك الذى أعطاك نافلة الـ ... قرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم ... أذنب وان كثرت فىّ الاقاويل

خطاب الناس على اختلافهم اياهم ؛ وفى حديثهم عنهم لم نجد استعمالات خاصة للضمائر[1] .

هـ ـ ان دراسة « الكتابة الديوانية » من أقدم عصورها كفيلة بأن تبين لنا الزمن الذى بدىء فيه باستعمال ضمير المتكلمين للمتكلم الواحد فى الرسائل عندما تصدر الرسالة باسم خليفة ، او باسم امير أو وزير الى من هو أدنى منه كما أنها كفيلة باظهار ما صحب ذلك من اكثار فى ألقاب التمجيد والتفخيم ، ومدى تأثر العرب فى ذلك بما كان من هذا لدى الأمم الأخرى ان كان ثمة تأثر .

---

(١) قال ابو بكر يوم بويع : « أما بعد فانى وليت عليكم ولست بخيركم . . . وان اقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له الحق ، وان اضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه الحق . أيها الناس انما انا متبع ولست بمبتدع فاذا رأيتمونى على حق فأعينونى ، وان رأيتمونى على باطل فردونى . اطيعونى ما أطعت الله فيكم فاذا عصيته فلا طاعة لى عليكم ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . »

ومن خطبة عمر بن الخطاب اذ ولى الخلافة : « يأيها الناس انى داع فأمنوا . اللهم انى غليظ فليني لأهل طاعتك بموافقة الحق ابتغاء وجهك والدار الآخرة ، وارزقنى الغلظة والشدة على اعدائك واهل الدعارة والنفاق من غير ظلم منى لهم ولا اعتداء عليهم . . . » .

ومن خطبة عثمان بن عفان عقب أن بويع : « أما بعد فانى قد حملت وقد قبلت . الا وانى متبع ولست بمبتدع ، الا وان لكم على بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ثلاثا . . . » .

ومن خطبة لعلى بن أبى طالب بعد التحكيم : « . . . وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومة أمرى ، ونخلت لكم مخزون رأيى لو كان يطاع لقصير أمر فأبيتم على إباء المخالفين الجفاة والمنابذين العصاة حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضن الزند بقدحه ، فكنت واياكم كما قال أخو هوازن :ـ

امرتكم أمرى بمنعرج اللوى فلم تستبينوا النصح الا ضحى الغد . »

ومن الأمثلة الشعرية على عدم استعمال ضمائر خاصة عند خطاب الخلفاء الراشدين قول الحطيئة المشهور يخاطب عمر :ـ

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ ... زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
الفيت كاسبهم فى قعر مظلمة ... فاعدل عليك سلام الله يا عمر
أنت الامام الذى من بعد صاحبه ... ألقى اليك مقاليد الورى البشر
لم يؤثروك بها اذ قدموك لها ... لكن لأنفسهم كانت بك الأثر
فاحنن على صبية بالرمل مسكنهم ... بين الأباطح تغشاهم بها الغرر
أهلى فداؤك كم بينى وبينهم ... من عرض داوية يعمى بها الخبر

و ـ انا فى العصر الحديث نجد خطاب الملوك والسادة وما يصدر عنهم يختلف عما كان عليه الأمر أيام الجاهلية وصدر الاسلام فنحن المصريين كنا نشير الى الملك أيام الملكية بـ « مولانا » و « مولانا صاحب الجلالة » .

والمراسيم التى تصدر باسمه كانت تبدأ بمثل « نحن فؤاد الأول ملك . . . رسمنا بما هو آت . . . »

ولم يكن يسوغ فى مخاطبة رسمية مخاطبته باسمه بل يقال «يا صاحب الجلالة» «مولانا الملك المعظم» ؛ «جلالتكم» ؛ « ذاتكم الملكية الكريمة» الخ . ولكن للشعر لغته الخاصة فالشاعر يباح له أن يخاطبه باسمه وأن يشير الى اسمه مجرداً من كل لقب أو مقرونا بألقاب ، كما يباح له أن يخاطبه بضمير المفرد[1] ، ولذلك فقد أشرنا الى وجوب دراسة لغة الشعر دون الخلط بينها وبين لغة النثر .

ولكن اللغة العربية وان كثر فيها حديثا استعمال ضمير الجمع عند مخاطبة شخص عظيم أو عندما يكون المتكلم شخصاً عظيماً الا أنها لا تغير من ضمير المتكلم الذى يخاطب العظيم بيانا لأنه أقل منه شأنا أو لأنه ند له ؛ كما أن العربية لا

---

(١) ومن ذلك فى شعر شوقى :ـ (الشوقيات حـ ١ مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٥٣ـ حـ ٤ طبعة ثانية مكملة نفس المطبعة سنة ١٩٥١) .

العلم والملك الرفيع كلاهما ... لك يا «فؤاد» جلالة ومقام
(ديوان حـ ٤ ص ١٠)

و : «فؤاد» حلبتك جيد النيل مائرة ... حلوت فى صوغها آباءك النجبا
ديوان حـ ١ ص ٨٤

ومن مخاطبة شوقى للملك فؤاد بكنيته ؛ وهى طريقة من خطاب الملوك لم تكن اذ ذاك تستعمل فى غير الشعر :ـ

انظر «أبا الفاروق» غرسك هل ترى ... بالغرس الا نعمة ونماء
ديوان حـ ٤ ص ٥٠

و : « أبا الفاروق » أقبلنا صفوفا ... وأنت من الصفوف هو الأمام
(ديوان حـ ٤ ص ٧٢)

ومن أمثلة مخاطبة شوقى للملك فؤاد معظما ومفخما قوله من بيتين أرسلهما فى برقية بميلاد (الأميرة) فتحية :

مولاى ! ان الشمس فى عليائها ... أنثى ، وكل الطيبات بنات
(ديوان حـ ٤ ص ٧٤)

وقوله فى مطلع قصيدة يهنىء بها الدكتور على ابراهيم بمناسبة الانعام عليه برتبة الباشوية سنة ١٩٣٠ :

يسد الملك العلوى الكريم ... على العلم هزئت أخاه الأدب
(ديوان حـ ٤ ص ٧٥) .

تستعمل ضمير الجمع الغائب عند الاشارة الى شخص ذى جاه .

وما هو جدير بالملاحظة أنه يكثر فى لغة التأليف سواء كان المؤلف كتابا علميا أو أدبيا ، أو مقالة أن يتكلم المؤلفون مصطنعين ضمير جماعة المتكلمين (ونحن نرى ـ قلنا ـ أشرنا . . . الخ) ولكن استعمال هذه الصيغة غير لازم فهم يستعملون الى جوارها صيغة المتكلم المفرد ؛ والدراسة التاريخية لاستعمال هذه الصيغة كفيلة بأن تضع أيدينا على النصوص الأولى التى استعملت فيها .

(٤) واذا تركنا العربية الى بعض اللغات الأوربية الحديثة وجدنا صورا أخرى من العلاقة بين الضمائر وبين المستويات الاجتماعية .

ا ـ **فالانجليزية** تستعمل ضميرا واحدا هو You عند خطاب أى انسان أيا كانت منزلته من المتكلم، وهذا الضمير هو نفسه الذى يستعمل عند خطاب أكثر من شخص، كما أنه هو الذى يخاطب به المذكر والمؤنث على حد سواء، وبينما الخطاب فى الانجليزية لا يراعى فيه التفريق بين الواحد وما يزيد عن الواحد ولا بين المذكر والمؤنث ، فان التكلم له ضميران أحدهما للواحد أو الواحدة (I) والثانى لما يزيد عن الواحد مذكرا أو مؤنثا أو غيرهما (We) ؛ والغيبة يفرق فيها كذلك بين المفرد وما يزيد عن المفرد وهى فى حالة المفرد تخصص ضميرا لكل من العاقل والعاقلة وما لا يعقل It - She - He أما فى حالة الجمع فهى تستعمل ضميرا واحدا هو They ومعروف أن لهذه الضمائر فى الانجليزية تصرفات حسب موقعها من الجملة ومدلالتها على الملكية .

وان كانت الانجليزية لا تستعمل فى الخطاب عادة الا ضميرا واحدا هو You وبذلك يمكن القول ، كما ترى مرجريت شلاوش[1] بأنها فى هذه الناحية « لا طبقات فيها » ، الا أنها تستعمل لخطاب المفرد أحيانا قليلة ضميرا خاصا هو (thou) وذلك فى الخطاب الجدى ـ كالكلام الدينى وألوان من الخطابة والشعر أحيانا . ان الانجليزية تعبر عن منزلة المخاطب من المتكلم عن طريق الأسلوب العام وانتقاء الكلمات ، ولا يزال يستعمل فيها ـ وان كان فيما مضى أكثر شيوعا ـ أسماء مجردة تذكر بعد ضمير الملكية المخاطب (your) عند خطاب الملوك

(1) The Gift of Tongues, p. 270 . . . . . .

والأمراء والأميرات وحملة الألقاب وحاملاتها وذوى المناصب الرفيعة مثل
Your Highness - Your Majesty Your Ladyship - Your Lordship
Your Excellency الخ .)[1]

ب ـ **أما الفرنسية** فمن المعروف أنها فى التكلم لا تميز الا بين الواحد وما يزيد عن الواحد دون تفريق يقوم على أساس التذكير والتأنيث (Nous - Je) وهذا النوع من التمييز هو الذى تراعيه فى الخطاب (Vous - Tu) ولكنها فى الغياب تضيف الى هذا التمييز التفريق القائم على أساس التذكير والتأنيث فللواحد والواحدة Elle - Il وما يزيد عن الواحد مذكرا Ils وما يزيد عن الواحدة Elles . والفرنسى عند ما يخاطب شخصا لا يألفه وان كان فى مستواه الاجتماعى أو شخصا يعلوه فى السلم الاجتماعى يخاطبه بضمير الجمع vous ، أما فى خطابه أصدقاءه ومن لا كلفة بينه وبينهم فهو يستعمل ضمير المفرد Tu

جـ ـ **والألمانية** أشد من الانجليزية والفرنسية تدقيقا وتمييزا فى ضمائر الخطاب للتعبير عن منزلة المتكلم من المخاطب : فالألمانى فى خطابه طفلا أو صديقا حميما أو شخصا يحس نحوه زراية واحتقارا يقول "du"، وقد يبدو غريبا استعمال ضمير واحد فى خطاب الصديق وفى خطاب من يحس المتكلم نحوه زراية ، ولكن هذا هو الذى تسير عليه الألمانية ؛ والألمانى اذ يخاطب غريبا عنه يعبر عما بينهما من بعد باستعماله الضمير Sie (وهذه الكلمة مطابقة شكلا وأصلا للضمير الذى يعنى « هم » they) ؛ أما اذا أراد اظهار الاحترام والطاعة فهو يوجه الكلام الى المخاطب مستعملا اسما غالبا (فيقول مثلا ما يقابل : هل فرغ السيد من احتساء قهوته ؟) .

(٥) ولكن هذا التفصيل فى الضمائر الذى نجده فى الألمانية وسائر اللغات

(1) ترى مرجريت شلاوش أن الضمير الذى يمكن أن يحل محل هذه الأسماء المجردة (مثل Excellency وما اليها) فى اللغات التى تميز بين الجنس هو ضمير المفردة المؤنثة She (هى) ؛ وأن الكلمة الاسبانية المعاصرة المقابلة لـ "You" مأخوذة من اسم مؤنث مرتبط بالتهذيب الذى يراعى فى دوائر البلاط والأوساط الراقية فـ "Usted" الاسبانية مختصرة من "vuestra merced" التى تقابل فى الانجليزية "Your graciousness" أو "Your mercy" .

(2) انظر المرجع السابق .

الأوروبية ، وفى العربية لا يقاس الى ما يوجد فى**بعض لغات الشرق الأقصى كاللغة اليابانية والكورية ولغة اللابو** • وهذه اللغات نفسها لا تتفق فى صورة واحدة أو متقاربة فى تعبيرها عن المستويات الاجتماعية انما يتمثل فى كل منها لون خاص به •

ا ــ **فاليابانى** عندما يشير الى فرد من أفراد الطبقة العليا يمنعه تأدبه من أن يستعمل صيغة المبنى للمعلوم البسيطة فهذه الصيغة تشعر أن أفراد الطبقة العليا مضطرون الى أن يؤدوا الأعمال بأنفسهم ، ولهذا فهو يختار ال causative voice معطيا اياهم بهذا دور الأشخاص الذى يعملون بواسطة عن طريق الأمر ، أو هو يختار صيغة المبنى للمجهول كما لو كان الحدث يقع من تلقاء ذاته[1] .

ب ــ **أما اللغة الكورية** فهى تعبر بالصيغة الفعلية عما اذا كان المتكلم شخصا رفيع المقام يخاطب شخصا أدنى منه ، أو شخصاً أدنى يخاطب من هو أعلى منه ، أو شخصاً يكلم قريناً (= مساويا) له ؛ كما ان هذه اللغة تعبر بصيغة الفعل فى الوقت نفسه عما اذا كان هذا الخطاب يحدث باحترام نسبى ، أو باحتقار ، أو بطريقة معايدة لا احترام فيها ولا احتقار[2] .

حـ ــ وأما **المتكلم بلغة اللابو** فعليه أن يحدد أولاً بعد المخاطب منه فى السلم الاجتماعى لأنه حسب هذا التحديد لا يغير ضمير المخاطب ليس الا بل يغير ضمير المتكلم كذلك وسائر الضمائر • وقد رتبت مرجريت شلاوش[3] عدد الصيغ التى على المتكلم بلغة اللابو أن يختار من بينها حسب المراكز الاجتماعية للأشخاص الثلاثة الذين يحتاج الى أن يعبر عنهم[4]، ونحن ننقل عنها هذا الجدول فيما يلى :ــ

(١) المرجع السابق p. 271
(٢) المرجع السابق pp. 271 - 272
(٣) المرجع السابق pp. 270 - 271
(٤) راجع ما يتعلق بالضمير فى الفصل الذى كتبه يسبرسن بعنوان Person فى كتابه The Philosophy of Grammar (p.p. 212 - 225)
وانظر بصفة خاصة الى كلامه عن « الشخص الرابع » . وراجع الفصول التى كتبها المؤلف نفسه عن الشخص والضمائر فى كتابه :
Essentials of English Grammar, p.p. 146 - 196

الشخص المتكلم	انا ؛ نحن	انتِ ؛ انتما انتم انتن	هو ، هى ؛ هما هن هم
تلاح يكلم تلاحا آخر	kita الجمع ; aku	êngkau	dia , ia
شخص أعلى يكلم شخصا أدنى باستعلاء	kita الجمع ; aku	êngkau	dia , ia
شخص أعلى يكلم شخصا أدنى بطريقة عادية	kitâ الجمع ; sahaya	awak, kamu	dia , ia
شخص حال يخاطب أقرانه برتبة	(tuan) hamba	(hamba) tuan	(hamba) tuan
جميع الطبقات فى خطابهم الاوروبيين	kita; sahaya kami	tuan	tuan
شخص من الطبقة التى تقل من طبقة النبلاء مباشرة يخاطب قرينا له			tuan , êncle'
رجل سامى لرئيسه	(dato') hamba (dato') sahaya	dato'	dato'
رجل سامى لراجا راجا لرجا آخر أعظم منه	patek	êngku tângku	êngku raja, tângku
رعية للسلطان	patek	tuan-ku	tuan-ku, yam-tuan
اللغة الأدبية	patek	sahabat beta	الاسم واللقب

ملاحظة : الصوت الممثل فى الجدول بالحرف e مثلنه المؤلفة فى الأصل بالحروف ə ونوقه ما يشبه رقم ٧ . ونظراً لتعذر هذا الحرف عندنا فقد عدلنا عنه الى الشكل المستعمل فى الجدول .

التطور اللغوى وصلته بالمجتمع

نتحدث الآن عن جوانب من تطور اللغة واللغات مبينين ما بين هذا التطور والعوامل الاجتماعية من صلات ؛ فنعرف بما يحدث من استمرار لغة على الألسن وانقطاع أخرى ، ومن ظهور « لغة عامة »[1] عن لهجة أو مجموعة من اللهجات (وهو يعرف بالتوحد اللغوى) ، ومن احتكاك بين لغات ولهجات يحدث آثاراً فيها مع بقائها جميعاً على الألسنة .

(أ) بقاء اللغات وموتها

توصف لغات بأنها « حية » وأخرى بأنها « ميتة » . والحق أن هذه الحياة وذاك الموت نسبيان يقاسان باستمرار استعمال هذه اللغات ، أو بانقطاع دورانها على الألسن . ان أية لغة من اللغات هى نظام معين من النظم الاجتماعية ، وهى بهذا الاعتبار خاضعة لتطور مشروط بتطور الجماعة التى تتكلمها ؛ وأية لغة باعتبارها نظاما من العلامات التعسفية المتواضع عليها لا يقوم لها وجود الا اذا استعملتها جماعة من الجماعات .

وأشهر ما يساق من الأمثلة على « موت » اللغات هو اللغة اللاتينية . ولكن اللاتينية لم تمت فى الحقيقة ، انها لم تمت من الناحية التاريخية ، بل أصابتها تغيرات عميقة أنتجت أشكالا[2] حديثة لها أبرزها البرتغالية[3] ، والقشتالية[4] ، ولغة قطالونيا[5] ، ولغة بروڤانس[6] ، والفرنسية ، والايطالية ولغة رومانيا[7] ، والاسپانية . وقد بلغ من شدة هذه التغيرات وعمقها أنا نحس اذا نظرنا الى الأشكال الحديثة

---

(١) Common Language . . . . . .

(٢) انظر فى هذا :
Jean Perrot : La Linguistique ; pp. 123 - 124
Jespersen : Mankind .....; pp. 44 -45

(٣) Portuguese . . . . . .

(٤) Castilian . . . . . .

(٥) Catalonian . . . . . .

(٦) Provencal . . . . . .

(٧) Roumanian . . . . . .

للاتينية بأنها لغات مختلفة .

ومن اللغات التى توقف الناس عن استعمالها اللغة الغالية[1] التى أخذت تزول شيئاً فشيئاً الى أن حلت محلها اللاتينية ؛ ومنها لغة كورنوال[2] ، وهى لغة كلتية الأصل كان يتكلمها أهل الجزر البريطانية الى أن حلت محلها اللغة الانجليزية . ومن ذلك اللغة القبطية فى مصر ، والبربرية فى أقطار كثيرة من شمال افريقيا ، فقد حل محل هاتين اللغتين لغة العرب الفاتحين .

واللغة الهندوأوروبية العامة انبثق عنها عدد كبير من اللغات ، وكذلك الشأن فى اللغة السامية العامة ، وفى اللغة الاسكندناڤية العامة التى انبثق عنها الأيسلندية[3] ، واللغة الفورية[4] ، والنرويجية ، والسويدية ، والدانمركية . واللغة الجرمانية الغربية العامة ظهر عنها الانجليزية ، والألمانية ، والهولندية[5] .

(ب) التوحد اللغوى

(١) فى حياة اللغة ميلان متعارضان : أحدهما نحو التقسم الى لغات ولهجات ، والثانى نحو الوحدة المتزايدة الاتساع . وكلا التقسم والتوحد اللغويين فعل أحداث تؤثر فى الجماعات . ويرى بعض اللغويين ان الاتجاه نحو التقسم أقوى من الاتجاه نحو التوحد ، وأن الاتجاه الأول هو عملية التطور الطبيعية للغة ؛ ومن هؤلاء اللغويين « ويلد »[6] الذى يقرر أن اتجاه اللغة هو نحو « التنوع اللانهائى » وهؤلاء اللغويون يستشهدون على رأيهم بأدلة كثيرة من بينها أنه ما ظهرت لغة عامة الا تقسمت فى لغات كثيرة .

---

(١) Gaulish . . . . . .

(٢) Cornish . . . . . .

(٣) Icelandic . . . . . .

(٤) Fœric . . . . . .

(٥) فيما يتعلق بتصنيف اللغات وتطورها راجع ما كتبه انطوان ميبه بعنوان :
Introduction A La Classification Des Languages (Linguistique Historique Et Linguistique Générale, Tome II, pp. 53 - 69)
وبعنوان :
Le Développement Des langues (op. cit., pp. 70 - 83)
وراجع ما كتبه فى الجزء الأول من نفس الكتاب بعنوان :
Convergence des Développements Linguistiques (pp. 61 - 75)

(٦) H.C. Wyld . . . . . .

ولكن «يسپرسن» يرى أن هناك قوى لايجوز التغافل عنها تعمل فى الاتجاه المضاد ، وأن ,, هذه القوى الموحّدة كانت فى العصور التاريخية أقوى فى حقيقة الأمر من القوى المقسِّمة ، وانها لكذلك فى الوقت الحاضر على وجه الخصوص ، وستكون كذلك يقينا فى المستقبل،،[1] . ومما يستشهد به يسپرسن أن عدد اللغات الآن ، وان كان أكثر منه فى بعض العصور الماضية ، الا أن عدد المتكلمين بلغة من اللغات المنبثقة عن لغة عامة — فى عصرنا المزدحم بالسكان ازدحاما لم يعرف من قبل — هو فى معظم الحالات أكثر أضعافا مضاعفة من مجموع الذين كانوا يتكلمون تلك اللغة العامة . ومن أمثلته على هذا أن عدد من كانوا يتكلمون الجرمانية الغربية العامة ضئيل جداً بالقياس الى المائة والخمسين مليونا الذين يتكلمون الآن الانجليزية، والخمسة والسبعين مليونا الذين يتكلمون الآن الألمانية ، والعشرة ملايين الذين يتكلمون الآن الهولندية[2] . ثم يعود يسپرسن فيحترز بعض الاحتراز مقرراً أنه أيا ما كان الحال فالواقع أن الميل جد قوى نحو أن يكون عدد المتكلمين بلغة واحدة ونفس اللغة أكبر بكثير منه فى أى زمن مضى[3] .

(٢) أما **العوامل المعينة على ظهور لغة عامة وعلى نشرها** فكثيرة معقدة متشابكة . وذلك لأن الحياة الاجتماعية تقوم على العمل المشترك لقوى كثيرة مختلفة . وهذه العوامل تختلف طبيعة وقوة ودرجة ، فقد تكون سياسية ، أو اقتصادية ، أو قومية ، أو أدبية ، أو غير ذلك .

ودراسة ظهور اللغات العامة التى تكونت فى العصور التاريخية تبين أنه لم يحدث فى حالة من الأحوال أن كان ظهور اللغة المشتركة أو العامة راجعاً الى عامل فرد ، وانها لتبين كذلك أنه من العسير فى كثير من الأحوال معرفة أى العوامل كان أقوى أثراً فى تكوين اللغة العامة أو فى اذاعتها .

ولذلك فسنعرض فيما يلى أهم العوامل ذات الأثر فى تكوين اللغات العامة ونشرها ، دون أن يعنى هذا بالضرورة أن هذه العوامل لا بد من توفرها فى كل حالة .

---

(١) Jespersen : Mankind ..... ; p. 44 .
(٢) " : " ..... ; p. 45 .

١ — يعتبر التوحد اللغوى دائماً على **الاتصال والاختلاط وعلى الاشتراك فى الحياة** . والاتصال الفعال فى توحيد اللغة قد ينشأ عن حرب تسبب اختلاط سكان ينتمون الى أماكن مختلفة ذات لهجات مختلفة ، وقد ينشأ من عقد الأسواق الموسمية ، وعن المصاهرة بين أصحاب اللهجات المختلفة ، هذه المصاهرة التى يدعو الى قيامها ظواهر اجتماعية ونفسية . وللدين دوره الهام فى قيام اللغات العامة ، فالأعياد والاجتماعات الدينية الكبرى تؤلف بين الناس قاصيهم ودانيهم ؛ ومن ذلك أثر اجتماع عرب الجاهلية فى مكة خاصة فى ظهور اللغة العربية المشتركة ؛ وما كان لمعبدى دلفى[1] وأوليمپيا[2] فى اليونان — وكانا مزار جميع الهيلينيين — وللألعاب الأولمپية عند اليونان التى كان لها دلالة دينية . وللكنيسة دورها الهام فى توحيد اللغة فى كثير من البلدان، وان كانت أحيانا معرقلا للتوحيد اللغوى عندما تحتفظ بلغة قديمة .

ب — أما **الأدب** لا سيما الشفوى فمن أكبر القوى العاملة على تكوين اللغات العامة واستفاضتها . فالرواة والقصاص والمنشدون والمغنون كانوا ينتقلون بأدبهم من قبيلة الى قبيلة ومن بلاط ملك أو أمير الى بلاط غيره ، ولقد كانوا مضطرين فى كثير من الأحوال الى أن يستعملوا نوعا من الكلام العام يفهم جوهره أصحاب اللهجات المختلفة الذين يعرضون عليهم أدبهم ، وكثيراً ما كانوا يعمدون الى أن يسقطوا من كلامهم ما قد يستعصى على الادراك من عناصر لهجتهم المحلية ، وهكذا تتكون لغة أدبية عامة . ولقد وجدت فى أيرلندا فى العصور الوسطى لغة عامة من هذا النوع كان أعظم عامل فى ظهورها راجعاً الى تأثير القصاص[3] وهكذا كان النشأ فى لغة الأدب اليونانى القديم : نشأت كل فنون الأدب اليونانى — ما عدا المأساة — فى المستعمرات اليونانية فيما بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد ؛ ولقد كان بين هذه المستعمرات تبادل قوى . ولغة هذه الآثار الأدبية لا تطابق لغة بلدة خاصة فهذه الآثار الأدبية لم تكن موجهة الى بلدة واحدة بل الى مجموعة من البلدان ، والى اليونان كلها فى واقع الأمر . نعم ان كل فن من فنون

---

(١) Delphi . . . . . .
(٢) Olympia . . . . . .
(٣) Saga-Men . . . . . .

الأدب اليونانى كانت لغته الخاصة مصطبغة بلغة ذلك الاقليم الذى ظهر فيه لأول مرة، ولكن مثقفى اليونان فى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد كانوا يفهمون النصوص الأدبية اليونانية وان كانت مؤلفة بلهجات جد نائية .

وان أثر الأدب فى تكوين اللغات العامة وانتشارها يصحبه ظروف اجتماعية خاصة سياسية واقتصادية وغيرها . أما القول بأن لغة عامة قد كونها أديب واحد فهو قول غير صحيح . ومن ذلك الاعتقاد الذى كان سائداً أن الايطالية قد كونها دانتى[1] ، والانجليزية كونها تشوسر[2] ، والألمانية كونها لوثر[3] ، والدانيمركية كونها كريستيرن بدرسن[4] . فقد أظهر البحث أن كل لغة من هذه كانت مكونة قبل أن يخط هؤلاء حرفا . ولكن أهمية هؤلاء الأعلام أنهم دفعوا ما كان متحركا من قبل فقد اعتبروا نماذج أدبية ، وأخذ يقلد لغتهم أناس ما كانوا لولاهم ليتكلموا أو يكتبوا اللغة العامة .

حـ — وأما **الحالة السياسية** فذات أهمية قصوى فيما يتعلق بالعمل على التوحد اللغوى أو على عرقلته . فاذا قدر لولايات كل منها مستقل ولكل لهجته أن تتحد تحت حكم واحد كانت الفرصة مواتية لظهور لغة عامة : فالحكومة الواحدة مضطرة الى أن تخاطب سكان البلاد أجمعين على اختلاف لهجاتهم ؛ كما أن مقر الحكم من شأنه أن يستهوى الطامحين من مختلف الولايات ، وهؤلاء سيجدون أنفسهم مضطرين الى التنحى عن كثير من خصائص لهجتهم المحلية . وقد لوحظ أنه حيث تكون الحكومة مركزية الى حد كبير تنتشر اللغة العامة ، وذلك شأن الامبراطورية الرومانية القديمة بلغتها اللاتينية الرسمية .

أما ألمانيا التى ظلت قرونا ولايات مستقلة سياسيا وبدون عاصمة فهى مثل على عرقلة الحالة السياسية لظهور لغة عامة . فقد حدث حتى بعد ظهور اللغة الألمانية العامة — التى كان يعمل على ظهورها من قبل اتحاد ألمانيا ، قوى أخرى موحدة — أن اللغة العامية التى يتكلمها متعلمو الألمان حتى فى أيامنا هذه أكثر تلونا باللهجات

---

(١) Dante
(٢) Chaucer
(٣) Luther
(٤) Christiern Pedersen

المحلية اذا قيست بعاميات المتعلمين فى معظم البلاد الأوروبية الأخرى . ومن العوامل ذات الأثر فى ظهور اللغة الألمانية « لغة المحاكم »[1] السكسونية التى كانت تقلدها محاكم أخرى بما فيها محاكم النمسا[2] التى أصبحت شبه لغة كتابية عامة رسمية .

ثم كانت ترجمة لوثر للكتاب المقدس ، هذه الترجمة التى كانت كبيرة الأثر حتى فى البلاد الكاثوليكية ، بأسلوبها الحى الجديد الطبيعى ، وباختيارها للتعبيرات التى لم تكن ملكا خالصا لاقليم ألمانى بعينه . ولم يقتصر الأمر على لغة الكتابة فقد كانت ثمة عوامل تعين على نشر لغة الكلام العامة . ومن ذلك أن لغة الكلام الألمانية العامة قد أدخلتها فى المناطق الشرقية من ألمانيا طبقة عليا من طبقات المجتمع ، وكانت السلافية[3] لغة الكلام فى هذه الأقاليم من قبل . وكانت هذه الطبقة العليا تتكلم الألمانية بصورة بالغة الدقة ، اذ كانوا يحسون أن عليهم أن يتكلموا « كلاما صحيحا » وألا يرسلوا أنفسهم على سجيتها شأنهم فى بلد صغير فى سكسونيا[4] ، أو تورينجيا[5] أو باڤاريا[6] .

ء — ومن أهم العوامل المساعدة على تكوين لغة عامة وانتشارها فى المجتمعات الحديثة ، الخدمة العسكرية ، والمدارس والمعاهد والجامعات فهى تتيح الاتصال بين أشخاص من أقاليم مختلفة ذوى لهجات مختلفة ، وهكذا ينفسح المجال لظهور كلام مشترك .

أما السينما والاذاعة والصحافة فهى من أكبر وسائل نشر اللغة العامة فى العصر الحديث ، فكلامها المنطوق والمكتوب يوجه الى أصحاب اللهجات المختلفة ، فينهنه من حدة الاختلافات المحلية فى اللغة .

هـ — وظهور المدن الكبيرة قديما وحديثا — وقيامها راجع الى ظروف اجتماعية خاصة — خطير الأثر فى توحيد اللغة .

---

(١) Chancery-Language
(٢) Austria
(٣) Slavonic
(٤) Saxony
(٥) Thuringia
(٦) Bavaria

فالدور الذى قامت به أثينا وروما قديما فى تكوين اليونانية واللاتينية وإذاعتهما دور عظيم ولو لم تكن الاعتبارات السياسية وغير السياسية التى شاركت فى ظهور هاتين اللغتين فقد كانتا ستقومان بهذا الدور . ذلك لأن المدن تجذب جماعات من الناس من أقاليم متفاوتة متباعدة فضلاً عن اجتذابها أناساً من ضواحيها المتاخمة لها . وينتج عن اختلاط هؤلاء المهاجرين بعضهم ببعض ، وعن اختلاطهم بالسكان الأصليين أن تصقل لغة الجميع ، وأن ينتهى الأمر بأن يتكلم سكان المدينة الكبرى بطريقة لا تنتظر من موقعها الجغرافى ؛ فالكلام العام المشترك لأثينا لم يكن أتيكيا[1] خالصاً ، والكلام العام لروما لم يكن كلام سكان روما الأصليين ، والكلام العام للندن وباريس فى العصر الحديث ما هو بلندنى خالص أو باريسى خالص . ان هذه اللغات العامة ظهرت فى أثينا وروما ولندن وباريس ولكنها لم تظهر بفضل أثينيين ورومين ، ولندنيين وباريسيين[2] .

(ح) **آثار الاحتكاك بين اللغات واللهجات :**

(١) تحدث أحياناً اتصالات بين اللغات واللهجات نتيجة للاتصال بين الجماعات الناطقة بها دون أن ينشأ عن ذلك حلول لغة محل أخرى ؛ وهذه الاتصالات لها آثارها اللغوية فى اللغات التى يحتك بعضها ببعض ، وقد تكون هذه الآثار أقوى ظهوراً فى احداها . ومن ذلك كثرة الكلمات العربية فى اللغة الاسبانية نتيجة لفتح العرب اسبانيا واقامتهم بها قروناً . ومنه ما فى العربية الفصحى منذ الجاهلية من كلمات حبشية ورومية وفارسية وهندية وسواها لما كان من اتصالات مختلفة الوسائل بين العرب وبين أصحاب تلك اللغات . والدخيل الفارسى قد ازداد فى العربية بعد الاسلام خاصة ثمرة لازدياد الاحتكاك بين العرب والفرس . والفارسية نفسها أخذت من العربية بعد الاسلام وكان من أظهر ما استعارته مصطلحات عربية علمية ودينية . وكثر الدخيل اليونانى فى العربية لما نقل العرب الى لغتهم فلسفة اليونان وعلومهم . وفى العاميات العربية الحديثة كلمات تركية دخلتها بعد أن آلت الخلافة

(١) Attic . . . . . .

(٢) انظر فيما يتعلق بالعوامل المعينة على التوحد اللغوى :
Jespersen, Mankind... : pp. 46 - 86

وراجع ما كتبه أنطوان ميبه بعنوان :
Différenciation Et Unification Dans Les Langues (Linguistique Historique Et Linguistique Générale, pp. 110 - 129)

الاسلامية الى العثمانيين واستمرت فيهم قروناً . كما أن فيها كلمات أوروبية مختلفة الأصول ، وان غلب أصل هنا وآخر هناك ، نتيجة الاستعمار الأوروبى للعالم العربى الحديث ولسوى ذلك من الأسباب ، فتكثر فى العراق ومصر كلمات انجليزية الأصل ؛ وفى سوريا ولبنان وتونس والجزائر كلمات فرنسية ؛ وفى ليبيا كلمات ايطالية ؛ وفى انحاء من مراكش كلمات اسبانية . وقد أخذت العامية المصرية فى السنوات الأخيرة — ولا تزال — تؤثر فى سائر العاميات العربية على تفاوت فى الدرجة لمكانة مصر حديثاً من العالم العربى : ووسائل نشر المصرية فى سائر الأقطار العربية من أهمها الأفلام السينمائية المصرية وأكثرها بالعامية ، والأفلام المصرية تكاد أن تكون الأفلام العربية الوحيدة التى تعرض فى كثير من البلدان العربية لتخلف الفن السينمائى فى هذه البلاد أو لعدم قيامه أصلاً ؛ ومن وسائل نشر العامية المصرية ما فى الاذاعة والصحافة المصريتين من قصص وتمثيليات وأغان ومقالات بالعامية ؛ ومعروف أن لهاتين الوسيلتين أثراً فائقاً فى سائر الأقطار العربية . وثمة وسائل أخرى لانتشار العامية المصرية منها كثرة الوافدين على مصر من البلاد العربية لتلقى العلم فى مدارسها ومعاهدها وجامعاتها ، وللزيارة والاتجار والاقامة ، ومنها البعوث التعليمية المصرية وأهمها فى بلاد العرب السعودية ، والكويت ، واليمن ، والعراق ، والسودان ، وليبيا . ولقد نتج عن انتشار العامية المصرية فى سائر الأقطار العربية أن صار أهل هذه البلاد ، لا سيما المثقفون منهم وسكان المدن الكبيرة ، أفضل فهما للعامية المصرية من المصريين لعاميات البلاد العربية الأخرى .

وفى المجتمع الحديث الذى كثر فيه الاتصال بين الأمم وسهل ، نتيجة للانقلاب الصناعى ، والمخترعات الحديثة وسرعة المواصلات وازديادها ولسوى ذلك من العوامل ، نجد كلمات مشتركة بين كثير من اللغات الأوروبية أصلها ايطالى أو ألمانى أو انجليزى مثلاً ، فانتشرت فى هذه اللغات أسماء لوحدات كهربائية مأخوذة من أسماء مخترعيها مثل Ampère - Volt - Ohm بل نجد كثيراً من الكلمات الأوروبية تنتشر فى لغات غير أوروبية كأسماء بعض المخترعات

والالآت مثل راديو ــ تلغراف ــ تلفون ــ تليفزيون ــ سينما ــ فيلم ــ پيانو الخ[1] .

(٣) ان كثرة المفردات الدخيلة نتيجة لما يحدث بين اللغات واللهجات من احتكاك أمر معروف مقرر من قديم وربما كان أبرز وأكثر ما ينشأ عن هذا الاحتكاك، ولكن النظر الى الآثار الناتجة عن الاحتكاك بين اللغات واللهجات قد تغير في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ، وفي ضوء علم اللغة الجغرافي ونظرية الموجات اللغوية بصفة خاصة . ومن أهم ما أخذ المحدثون من اللغويين في الخوض فيه فيما يتعلق بهذا الموضوع هو **امكان تأثير الاتصالات بين لغات الجماعة التي يحتك بعضها ببعض في بنية اللغات .**

فمن العلماء من يرى أنه حيث تظهر في لغات متجاورة من الناحية الجغرافية سمات مشتركة لا يفسرها اشتراك هذه اللغات في أصل لغوي واحد فمرد ذلك الى تأثير بنية لغة منها في سائرها ؛ ومن ذلك أن الصوتين الصائتين ü و ö (الفرنسية e, eu, u) ودرجات مختلفة منهما تستعمل في مساحة تشمل الفرنسية، ولغات من المجموعة الجرمانية الغربية هي الألمانية ، والفلمنكية والهولندية . ومن الأمثلة التي يستشهد بها على تأثير النظام النحوي للغة في النظام النحوي لأخرى أو أكثر نتيجة للاتصال بينهما أنه في شبه جزيرة البلقان تظهر في اليونانية والبلغارية ولغة رومانيا والألبانية سمات مشتركة تميز كلا من هذه اللغات من سائر لغات عائلتها؛ ومن ذلك استعمال الفعل الذي يعني «يريد» لتكوين فعل دال على المستقبل (ففي اليونانية مثلا تستعمل عبارة thélô hina و thélô معناه « أنا أريد » ، وذلك كما في الفرنسية العامية أو المحلية il ne veut pas pleuvoir بمعنى il ne va pas pleuvoir) . ومن أمثلة الخصائص المشتركة بين اللغات المتجاورة غير المنتمية الى أصل لغوي واحد ، ما يلاحظ في معظم لغات الشرق الأقصى من التوسع في استعمال النغمات استعمالا وظيفيا للتفريق بين المعاني ، ومن أن التمييز بين الاسم والفعل في هذه اللغات تمييز جد ضئيل . وهكذا أخذ اللغويون يتحدثون عن وجود « تحالف » أو « اتحادات » بين اللغات فبدت أهمية

(١) راجع فيما يتعلق بالدخيل وأقسامه وكيفية دراسته الفصول الآتية التي كتبها ليونارد بلومفيلد في كتابه Language
1) Cultural Borrowing (pp. 444 - 460)
2) Intimate Borrowing (pp. 461 - 475)
3) Dialect Borrowing (pp. 476 - 495)

التصور الخاص بالتشابه (= التقارب = التصاهر) affinité بين اللغات الى جانب التصور الخاص بالأبوة بين اللغات[1] .

ولكن بعض اللغويين يميلون الى القول بأن الآثار الناتجة عن الاحتكاك بين اللغات غير المشتركة في الأصل آثار محدودة لا سيما فيما يتعلق بالبنية اللغوية . فهم يلاحظون أنه أيا ما كان أخذ لغة من أخرى غير مشتركة معها في الأصل فان كلتا هاتين اللغتين يظل واضح العلاقة بأصله ؛ فمن اليسير أن نميز لغة سلافية من أخرى جرمانية . ويضيفون الى هذا أن نسبة الصفات المشتركة بين اللغات غير المنتمية الى أصل واحد الى ما حدث بينها من اتصالات ؛ أي الى تأثير بنية لغة في بنية غيرها ؛ قد يكون أخذا بالظاهر ، وربما كان التفسير الحقيقي أن هذه الصفات ظهرت في اللغة التي يفترض تأثرها بسواها نتيجة للتطور الخاص بها ــ هذا التطور الذي ينتج عن العمل المشترك لعوامل كثيرة تكون وحدانيته ــ دون أن يكون لاتصالها بغيرها أثر في ذلك ، أي أن هذه الصفات كانت ستظهر لو لم يكن هذا الاتصال[2] .

(١) انظر Jean Perrot : La Linguistique pp. 124 - 125 .
وانظر الفصل الخاص بـ :
Le Problème De La Parenté Des Langues
والفصل الذي عنوانه :ـ
Les Parentés De Langues
في كتاب أنطوان ميبه :ـ
Linguistique Historique Et Linguistique Générale, pp. 76 - 101; pp. 102 - 109.
وراجع ما كتبه ميبه في الجزء الثاني من نفس الكتاب
1) Le Vocabulaire Dans La Question des Parentés de Langue, pp. 44-46.
2) Sur Le Degré De Précision Qu'Admet La Définition De La Parenté Linguistique, pp. 47 - 52.
(٢) Jean Perrot ; op. cit.

ب - المصادر الفرنسية

1) Dauzat, Albert :
La Géographie Linguistique.
Paris, 1922.

2) De Sausure, Ferdinand :
Cours de Linguistique Générale.
Paris — Lausanne 1916 ;
Quatriéme édition, Payot, Paris, 1949.

3) Descœudres, A. :
Le Developpement de l'enfant, de deux à sept ans ; Delachaux & Niestlé, Neuchatel & Paris, 1946.

4) Grégoire, A. :
L'Apprentissage du Langage, les deux premières années ;
Alcan, Paris, 1937.

5) Grégoire, A. :
L'Apprentissage du Langage, la 3 ème année et les années suivantes ;
Alcan, Paris, 1947.

6) Guillaume, P. :
L'Imitation chez l'Enfant ;
Presses Universitaires de France, Paris, 1950.

7) Meillet, Antoine :
Linguistique Historique Et Linguistique Générale.
(Collection Linguistique Publiée Par La Société De Linguistique De Paris — VIII) Tome I, 1921, nouv. tirage,
Paris, Edouard Champion, 1948.

8) Meillet, Antoine :
Linguistique Historique Et Linguistique Générale. Tomell ;
1938, Nouvean Tirage, Paris, Librairie C. Klincksieck 1952.
(Collection Linguistique Publite Par La Société De Linguistique De Paris).

9) Perrot, Jean :
La Linguistique.
Ire édition, Presses Universitaires De France, Paris 1953 (Que Sais-Je? 570).

20) Malinowski, Bronislaw :
Supplement to : The Meaning of Meaning, by C.K. Ogden and I.A. Richards.

21) McCarthy, D. :
The Language Development of the Pre-School Child.
University of Minnesota Press, U.S.A., 1929.

22) Sapir, Edward :
Language, an Introduction to the Study of Speech.
New York, Harcourt, Brace and Company, 1921.

23) Schlauch, Margaret :
The Gift of Tongues
London, George Allen and Unwin Ltd., Third Impression 1949.

24) Seth & Guthrie :
Speech in Childhood.
Oxford University Press. 1935.

25) Shaw, Bernard :
Pygmalion.
Penguin ed., 1949

26) Shirley, Mary :
The first two years, a study of twenty five babies.
The University of Minnesota Press. U.S.A., 1933.

27) Sommerfelt, Alf :
Recent Trends in General Linguistics ; "Diogenes", Number 1, English Edition p.p. 64-70 (A quarterly publication of the International Council for Philosophy and Humanistic Studies, Unesco.)

28) Stein, L. :
The Infancy of Speech and the Speech of Infancy ; Methwen & Co., London, 1949.

29) Stern, W. :
Psychology of early child hood up to the sixth year of age; G. Allen & Unwin Ltd., London, 1924.

30) Sturtevant, E.H. :
Introduction to Linguistic Science.

31) Sweet, Henry :
A New English Grammar
Oxford, 1892-98.

10) Piaget, J. :
Le Langage et la Pensée chez l'Enfant ; Delachaux & Niestlé, Neuchatel & Paris 1923.

11) Wartburg, Walter V. :
Problèmes Et Méthodes De La Linguistique.
Traduit de l'allemand par Pierre Maillard.
Ire édition, Presses Universitaires De France, Paris, 1946.

هـ - المصادر العربية

١) ابن منظور الافريقى (جمال الدين بن مكرم)
لسان العرب
المطبعة الأميرية ــ بولاق ــ مصر

٢) أحمد شوقى :
الشوقيـــات
مطبعة الاستقامة بالقاهرة
الجزء الأول ١٩٥٣ ــ الجزء الرابع طبعة ثانية مكملة ١٩٥١ .

٣) أمية بن أبى الصلت الثقفى :
ديوان أمية بن أبى الصلت .
جمع بشير يموت ؛ بيروت ، المطبعة الوطنية سنة ١٩٣٤

٤) تمام حسان :
مناهج البحث فى اللغة
ملتزم الطبع والنشر مكتبة الأنجلو المصرية ــ مطبعة الرسالة ــ القاهرة ١٩٥٥

٥) صالح الشماع :ــ
اللغة عند الطفل من الميلاد الى السادسة
ملتزم الطبع والنشر دار المعارف، مصر سنة ١٩٥٥ وهو ضمن سلسلة «منشورات جماعة علم النفس التكاملى » ــ وهو الرسالة التى نال بها صاحبها درجة الماجستير ، قسم الفلسفة كلية الآداب ، جامعة القاهرة

٦) عبد الرحمن أيوب (دكتور) :
اللغة بين الفرد والمجتمع
وهو تعريب بتصرف لكتاب أوتو يسپرسن Mankind, Nation...etc.
ملتزم الطبع والنشر مكتبة الأنجلو المصرية ــ مطبعة لجنة البيان العربى ــ القاهرة ١٩٥٤

٧) على عبد الواحد وافى (دكتور) :
علم اللغة
الطبعة الثانية ــ مزيدة ومنقحة ــ القاهرة ١٩٤٤ الناشر مكتبة النهضة المصرية ــ مطبعة الاعتماد بمصر ،

٨) على عبد الواحد وافى (دكتور) :
نشأة اللغة عند الانسان والطفل
الطبعة الأولى ــ الناشر دار الفكر العربى مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٤٧

٩) عمر بن الفارض :
ديوان ابن الفارض
نشر وطبع البابى الحلبى بمصر ، الطبعة الأولى سنة ١٩٥٣

١٠) ڤندريس ، ج :
اللغة
تعريب الأستاذين عبد الحميد الدواخلى ومحمد القصاص لكتاب :
Vendryes, J : Le Langage, Introduction Linguistique à l'Histoire, (1ére ed., Paris 1923).
نشر مكتبة الأنجلو المصرية ، طبع مطبعة لجنة البيان العربى ، القاهرة ١٩٥٠

١١) محمود السعران (دكتور) :
الصناعة الشعرية فى العصر الجاهلى من حيث الموسيقى وبنية القصيدة .
رسالة ماجستير قدمت الى كلية الآداب بجامعة الاسكندرية سنة ١٩٤٧ مكتوبة على الآلة الكاتبة ومحفوظة بمكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية .

معجم المصطلحات

(A)

Activity	نشاط
Human Activity	النشاط الانسانى
Action	فعل (عمل)
Reflex Action	عمل (فعل) انعكاسى
Social Action	العمل (الفعل) الاجتماعى
Voluntary Action	عمل (فعل) ارادى
Alphabet	الأبجدية ؛ الألف باء
Analogy	القياس
Linguistic Analogy	القياس اللغوى
Anthropology	الأنثروبولوچيا
Social Anthropology	الأنثروبولوچيا الاجتماعية
Aphasia	افازيا (الحبسة-العقلة)
Autonomy of Linguistics	استقلال علم اللغة

(B)

Babbling (Cooing ; Crowing)	البأباة
Behaviour	سلوك
Human Behaviour	السلوك الانسانى
Choric Behaviour	السلوك الجماعى
Linguistic Behaviour	السلوك اللغوى
Speech Behaviour	السلوك الكلامى
Biology	علم الأحياء (البيولوجيا)
Biological	بيولوچى
Brachycephalic (=round-headed)	مستدير الرأس

(C)

Clinical	كلينيكى
Communication	توصيل (اتصال)

Communion	تشارك
Comparative	مقارن
Comparative Method	المنهج المقارن
Comparative Study	الدراسة المقارنة
Concept	تصور
Conscious	واع
Consciousness	وعى
Consonant	صامت (صوت) ؛ الجمع صوامت أو صامتة
Labial Consonant	صامت شفوى
Cooing (Babbling)	البأباة (انظر
Crawling	الحبو
Crowing (Babbling)	البأباة (انظر

(D)

Deaf-Mutes	الصم البكم
Descriptive	وصفى
Descriptive Study	الدراسة الوصفية
Descriptive Method	المنهج الوصفى
Desire	رغبة
Development	نمو – تطور
Diacronic (Diachronistic)	حركى ؛ متحرك
Dialect	لهجة
Class-Dialect	لهجة طائفية ؛ لهجة طبقية
Dialect-Splitting	تقسم لغة فى لهجات
Dolichocephalic (=long-headed)	مستطيل الرأس
Dual	مثنى
Dynamic (see: Historical; Diacronic	تطورى

(E)

Emotion	انفعال

Emotional	انفعالى
Endocrine Organs	الغدد الصم (الغدد المفرزة للهرمونات)
Experience	تجربـة
Expression	تعبير
Facial Expression	التعبير بملامح الوجه
Hand Expression	التعبير اليدوى
Ethnology	اتنولوچيا
Ethnological	اتنولوچى

(F)

Feeling	شعور
Function	وظيفة
Social Function	وظيفة اجتماعية
Functional	وظيفى

(G)

Genetics	علم الوراثة
Gesture	اشارة

(H)

Historical	تاريخى
Historical Method	المنهج التاريخى
Historical Study	الدراسة التاريخية
Homophones	الكلمات المتفقة صوتا المختلفة معنى (أى التى بينها «جناس تام»)

(I)

Idea	فكرة (الجمع : افكار)
Imitation	التقليد
Imparting	توصيل (نقل)
Impersonal	غير شخصى
Indiyidual	فـرد

Individualist	متفرد
Infrastructure	البنية السفلى
Institution	نظام (من النظم الاجتماعية)
Intellectual	عقلى (ذهنى)
Integration	تكامل
Integrative Method	المنهج التكاملى

(L)

Language	اللغـة
Language Disorders	الاضطرابات الكلامية
Common Language	اللغة العامة ؛ اللغة المشتركة
Dead Language	لغة ميتة
Little Language	اللغة الصغيرة
Living Language	لغـة حية
Secret Language	اللغة (اللهجة) السرية ؛ الكلام السرى ؛ = لغة (كلام) اخارجين على سلطة المجتمع)
Undeveloped Language	لغة متخلفة
Linguist	عالم لغوى
Linguistic	لغوى (صفة)
Linguistic Change	التغير اللغوى
Linguistic Development	التطور اللغوى
Linguisti Family	العائلة اللغوية
Linguistic Parenthood	الأبوة بين اللغات
General Linguistics	علم اللغة العام
Logic	منطق
Logical	منطقى
Logical Instrument	أداة منطقية
Logician	عالم من علماء المنطق (الجمع : مناطقة)

(M)

Mathematics	الرياضة
Mathematical	رياضى
Mathematical Relations	العلاقات الرياضية
Meaning	المعنى
Study of Meaning (see: Semantics)	دراسة المعنى
Mechanical	آلى
Mentality	عقلية
Metaphor	المجـاز
Metaphorically	مجازاً ؛ مجازياً
Modifier	مغير
Monologue	مونولوج (الكلام الانفرادى)
Monosyllable	الكلمة أحادية المقطع (=الكلمة المكونة من مقطع واحد)
Mood	هيئة الفعل
Morpheme	عامل الصيغة (= دال النسبة)
Muscle	عضل
Muscular	عضلى
Mutilation	الاختصار او «القطع»

(N)

Negation	النـفى
Nervous System	الجهاز العصبى
Neurology	علم الأعصاب
Nursery stage	مرحلة المهد

(O)

Object	موضوع

(P)

Person	شخص
Personality	شخصية
Philosophical	فلسفى
Phonetics	علم الأصوات اللغوية
Phonetic, Phonetical	صوتى (صوتية)
Phonetician	عالم الأصوات اللغوية
International Phonetic Alphabet	الألفباء الصوتية الدولية
Preposition	الحرف (من أقسام الكلام)
Psychic	نفسى

(R)

Reduplication	التضعيف
Reflection	تأمل

(S)

Screaming	الصيـاح
Semantics	(علم) الدلالة
Semantic Shifts	التغيرات الدلالية
Sensation	احساس
Sentiment	عاطفة
Society	مجتمع
Social	اجتماعى
Social Fact	الظاهرة الاجتماعية
Social Relations	العلاقات الاجتماعية
Sound	صوت
Speech	الـكلام
Speech Community	الجماعة الكلامية (الجماعة ذات اللغة الواحدة)
Speech Defects	العيوب الكلامية

الوظائف الكلامية	Speech-Functions
انواع الوظائف الكلامية	Types Speech-Functions
أعضاء النطق	Speech-Organs
الصوت الكلامى	Speech-Sound
لغة الخارجين على سلطة المجتمع	Underworld Speech
اللغة (اللهجة) السرية أو الكلام السرى	(Secret Language)
ثابت ؛ حال الثبات	Static
بنية	Structure
البنية اللغوية	Linguistic Structure
البنية الاجتماعية	Social Structure
البنية العليا	Superstructure
دراسة (علم) الأسلوب	Stylistics
مقطع	Syllable
رمـز	Symbol
سكونى ؛ ساكن ؛ استقرارى ، مستقر ؛ حال الاستقرار	Synchronic (Synchrontistic)
نظم	Syntax

(T)

الكلام الحرام	Taboo
التكلم (الكلام) ؛ التحدث	Talking
تحديث الانسان نفسه ؛ (المنولوج)	Talking to one's self
زمن الفعل	Tense
الفكر	Thought
نغمة	Tone
نقـل	Transmission

(V)

الحدث (النص) الكلامى	Verbal Action
الأحداث غير الكلامية	Non-Verbal Actions

(١) الجهر (٢) صوت الانسان (الصوت الطبيعى)	Voice
(صوت) مجهور	Voiced
(صوت) مهموس	Voiceless
صائت (صوت) الجمع «صائته» أو «صوائت»	Vowel
صائت مفرد	Single Vowel

صواب الخطأ

الواقع فى مقال «اللغة والمجتمع»

ص	س	الخطأ	صوابه
٧٩	٢ هامش	ص ٦ – ٩	ص ٤٢–٤٥
٨٠	الأخير	Comporative	Comparative
٨٢	قبل الأخير	a a	ä
٩١	٤ من أسفل	من التخلص	فى التخلص
٩٢	٦ من أسفل	بدلا	بدلا من
١٠١	الأخير	Shlauch	Schlauch
١٠٩	٩	يمند	تمتد
١١٤	٢	مؤنثة	مؤنثه
١١٥	٩	الله أنه	أن الله
١١٧	١٠	الأخبار	الأخيار
١٢١	١ هامش	Solnuch	Schlauch
١٢٥	١٠	البى	النبى
١٢٥	١٢	البنى	النبى
١٢٨	١٢	بمسيم	بمسم
١٣١	٤ من أسفل	المسند	المسند ؟
١٣٤	٧	تسعثرا	تسعثرا
١٣٤	٦ من اسفل	الحىٔ	الحىُ
١٣٩	١٠	للنبى	للنبى
١٥٠	٣ من أسفل ٨	اشارة	انه اشارة
١٥٢	٢ من أسفل	خطاب	خطاب
١٥٣	الأصل	وعنبا	وعنبا وقضبا

صواب الخطأ «بقية»

ص	س	الخطأ	صوابه
١٥٤	١٥	فيها	فيهما
١٥٥	٣ هامش	آذ ئاك	آذ ئاك
١٥٦	٢	قالو	قالوا
١٥٦	٦	جزاءا	جزاءً
١٥٨	الأخير	الخبر	الخبر
١٦٠	٢	وسما	ومما
١٦٣	١٢	لوجا	لراجا
١٦٣	٣ من أسفل	بالخروف	بالحرف
١٦٥	٣ من أسفل الأصل	اللغوين	اللغويين
١٦٥	٦ هامش	Languages	Langages
١٦٦	٣	الحضاضر	الحاضر
١٧١	١	العثمانين	العثمانيين
١٧٧	٧ من أسفل	Nouveau	Nouveau
١٧٧	٦ من أسفل	Publite	Publiée
١٨٣	٧ من أسفل	Linguisti	Linguistic
١٨٦	٢	Types	Types of
١٨٦	٨ من أسفل	(المنولوج)	(المونولوج)

سيرة السنوسى الكبير

نقد المصادر وضرورة انشاء مجموعة لحفظ تراث الاستاذ الامام السنوسى

— ١٧٨٧ - ١٨٥٩م —

— ١٢٠٢ - ١٢٧٦هـ —

للدكتور محمد عبد الهادى شعيره

المراد بنقد المصادر هو معرفة طبيعتها بحسب القواعد المنهجية ، وليس المراد بطبيعة الحال نقض المصادر وتجريحها ، وبدل النظر الاول لمصادر التاريخ السنوسى فى عهد مؤسسه على أننا لا نزال نحتاج الى الاستكثار من المصادر التى أهملت والى جمعها لصيانتها من الضياع «وما أجدرنا — وقد ثبت أن الحركة السنوسية حققت بعض أهدافها دون جدال — أن نعكف على جمع تراثها العلمى والسياسى والاجتماعى والاقتصادى والدينى : فنعمل على صيانته من الضياع » وهذا واجب مفروض على جيلنا لسببين : أولهما ان كل بيئة مثقفة لا تكون كذلك بحق ولا تستطيع أن تشعر بعزتها الثقافية الا اذا حفظت ماضيها ، والسبب الثانى هو احساسنا ان أجيالنا لا تزال تحس الى اليوم أنها بحاجة الى هدى المؤسس الاول للسنوسية ، ولا يزال هذا الاحساس قائما لدى أهل البلاد جميعا ولدى الفكرين من رجال الاصلاح فى أرجاء العروبة كلها .

وحفظ المصادر عمل أساسى من أعمال المؤرخين ، يكاد يكون العمود الفقرى للدراسة التاريخية ، ولا شك أن التاريخ اذا ضاعت مصادره يتحول الى قصص لا قيمة له أو الى أخبار مقاربة قد تكون راجحة ولكنها لا تكون دقيقة .

وكذلك تقضى قوانين المناهج العلمية باعتبار المصادر السند الذى يصح بصحته الخبر أو يعتل بعلته .

فالخدمة الكبرى التى يستطيع المؤرخون اسداءها هى أن يحفظوا آثار الماضى ووثائقه وسجلاته للأجيال التالية ، ومن الخطأ الاستهانة بأمر هذا الحفظ لأنه